السادات يركب العاصفة

الجزء الاول
الاتصالات الديبلوماسية الاولى

ما ان توفي الرئيس عبد الناصر حتى قلت للرئيس الموقت انور السادات اني اود ترك منصبي الوزاري والعودة الى "الاهرام ". وكنت اعرف اني لو بقيت في منصبي كوزير، فأني سأدخل في صراعات مع بعض الاعضاء البارزين في الاتحاد الاشتراكي وفي مجلس الامة، ولن اكون في هذه الحالة الا عائقا في طريق الرئيس الجديد، في حين اني استطيع من مكاني في تحرير "الاهرام " ان اكون سندا مفيدا له. وقد استجاب لطلبي، على ان ابقى في الوزارة الى حين الانتهاء من الاستفتاء الذي يثبته في منصب الرئيس ، (في ١٥ اكتوبر (تشرين الاول) واعلنت نتيجته في اليوم التالي) ووافقت، ونشرت في ما بعد رسالتان وديتان متبادلتان بيننا في هذا الشأن . ولم يؤثر تركي لمنصبي على علاقتي بالرئيس، فقد واصلت مقابلاتي الكثيرة له ، وكنت سعيدا بأن احتفظ معه بالعلاقة غير الرسمية الخاصة التي كنت اتمتع بها مع سلفه .

وكانت هذه الفترة حافلة بالنشاط الديبلوماسي المكثف. كان الجميع داخل مصر وخارجها- ولا سيما امريكا والاتحاد السوفياتي، من بين الحكومات الاجنبية الاخرى- يتلهفون لاستكشاف ما ستكون عليه مصر ما بعد عبد الناصر . ذلك ان الرئيس الجديد لم يكن معروفا على نطاق واسع خارج مصر والعالم العربي . وكانوا يتساءلون : هل يكون الرئيس الجديد مجرد رمز تكون السلطة الحقيقية لمن يعملون تحت رئاسته ممن هم اقوى منه ؟ او يكون مجرد سد ثغرة سرعان ما يملؤها شخص آخر.
واذا كان الحال كذلك فمن هو الذي سيبرز على القمة من بين الاخرين الذين يقفون على الاجنحة في الانتظار؟ وكانت الاجابات عن هذه التساؤلات كثيرة ومختلفة.

ولعل خير وصف لما كانت عليه العلاقات بين مصر والولايات المتحدة في اعقاب وفاة عبد الناصر مباشرة انها نوع من الهدنة القلقة. كان كل جانب يشك في الجانب الآخر . وكان الامريكيون يتهمون مصر، وبغضب، بأنها نقلت مواقع الصواريخ في منطقة القناة بعدما اصبح وقف اطلاق النار نافذ المفعول . واظهارا منهم لاستيائهم ، فانهم وافقوا على صفقة جديدة ضخمة من الاسلحة لاسرائيل اثارت بطبيعة الحال غضبا شديدا في مصر. وعلى رغم ان الامريكيين كانوا سعداء بقبول عبد الناصر لمبادرة روجرز، فانهم كانوا يخشون ان لا يكون في مقدور خليفته على الارجح ان يقف في وجه الروس، كما انهم كانوا يميلون الى اعتبار جماعة علي صبري، ببساطة، جماعة مؤيدة للروس تماما. وكانوا يضغطون بصورة مستمرة لكي يمد وقف اطلاق النار الى اجل غير مسمى بعد ان تنتهي مدته في ٧ فبراير (شباط) ، ولكي يتم توقيع شكل من اشكال "الاتفاق الموقت" .

وكنت في ذلك الوقت ادعو بشدة في مقالاتي في "الاهرام "، وفي لقاءاتي مع الساسة، الى حاجة مصر الى العمل على تحييد الولايات المتحدة، باعتبار ذلك ضرورة اساسية للمعركة التي بدت امرا محتوماً. وقلت انه لا يمكن اية مشكلة في الشرق الاوسط او تحل من دون اشتراك فعلي من جانب القوتين العظميين، وبالتالي فليس هناك ما يبرر ان يصبح النزاع العربي- الاسرائيلي مستقطبا بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . وفي حين كان علينا ان نقبل ان مصالح امريكا متصلة اتصالا وثيقا باسرائيل، فان علينا ان نعمل دائما حتى لا تصبح هذه المصالح متطابقة مع بعضها تماما. وعلينا كذلك ان نسعى لكي تبقى هناك فجوة بين المصالح والسياسات الامريكية الاسرائيلية ، وأن نحاول العثور على مكان في تلك الفجوة للمناورة والضغط على اسرائيل . وقلت اننا نستطيع ان نعتمد في تحقيق هذه الاهداف على امكانات عدة من بينها قدرتنا على شن حرب محدودة ، وعلاقاتنا الوثيقة مع الاتحاد

السوفييتي (بشرط ان يظلوا دائما على علم بنوايانا) ، وسلاح البترول، وتضامن الدول العربية الاخرى .

وفي ذلك الوقت، اذيع ان الرئيس السادات سيلقي خطابا في مجلس الامة يوم ٤ فبراير (شباط) ١٩٧١. ولم يعرف زملاؤه الكبار بمحتويات الخطاب الا قبيل موعد القائه بقليل . وحين عرفوا بها كان رد فعلهم شديدا. ذلك ان الرئيس كان مصمما على ضرورة القيام بمبادرة ما ، لأنه لم يكن باقيا على انتهاء وقف اطلاق النار سوى ايام قليلة . وكان اقتراحه ان توافق مصر على مد فترة وقف اطلاق النار لمدة شهر، وأن يبدأ العمل في تطهير قناة السويس، بشرط ان تكون اسرائيل مستعدة لانسحاب جزئي في سيناء مصحوب بجدول زمني للانسحاب الكامل الى حدود مصر الدولية بموجب القرار الرقم ٢٤٢.
وطلب مني الرئيس ان اوضح للأمريكيين ان هذه المبادرة منه شخصيا ولا علاقة للروس بها على الاطلاق . وقد استقبل الرئيس بيرجس بنفسه وشرح له ان الانسحاب الاسرائيلي يجب ان يكون كبيرا: مائة كيلومتر، ويجب ان تتمكن القوات المصرية من عبور القناة الى سيناء لتتولى حماية من يعملون في تطهير القناة .

ووقفت جماعة علي صبري موقف المعارضة الشديدة لاقتراح الرئيس، وشهد مكتب الرئيس في مجلس الامة مناقشة صاخبة، حيث اصرت الجماعة على حذف اجزاء من خطاب الرئيس، لكن الرئيس تمسك بموقفه ونجح في الاحتفاظ بكل النقاط الرئيسية في الاقتراح .

وبعد اربعة ايام من القاء الخطاب، طلب الدكتور يارنج من الحكومة المصرية ان تقدم اليه التزاما مكتوبا بالنسبة الى الجزء الخاص بالسلام من القرار الرقم ٢٤٢، كما طلب من الحكومة الاسرائيلية التزاما مكتوبا مماثلاً بالنسبة الى الجزء الخاص بالانسحاب في القرار الرقم ٢٤٢. وقد وافقت الحكومة المصرية على هذا الطلب، ولكن الاسرائيليين رفضوه. ولم اكن انا نفسي متحمسا لمبادرة الرئيس في بادىء الامر، لانها بدت لي في بعض جوانبها مشابهة لفكرة كان الجنرال ديان اقترحها في شهر نوفمبر (تشرين الثاني)، الماضي، وعرض فيها ان يبدأ العمل في تطهير القناة في مقابل انسحاب اسرائيلي رمزي لبضعة كيلومترات . لكنها في الحقيقة اثبتت فائدتها في ما بعد من حيث اظهار حسن نية مصر والمساعدة على عزل اسرائيل .

وكان الرئيس يأمل في ان تؤدي مقترحاته الى ردود فعل ايجابية من جانب الامريكيين ، لكن الأمل لم يتحقق . فقد تلقى يوم ٤ مارس (اذار) رسالة من الرئيس نيكسون (كان فيها ما يشير الى ان روجرز هو الذي وضع صيغتها) قال فيها انه اذا كان المظنون ان تحديد موعد اخير لانهاء وقف اطلاق النار يمكن ان يكون عامل ضغط على الولايات المتحدة فهو مخطىء . فالحاجة تدعو الى مزيد من الوقت، وخاصة ان الحكومة الاسرائيلية بحاجة اليه لاقناع الشعب الاسرائيلي بضرورة تقديم تنازلات . وقال نيكسون ايضا انه لا يريد ان يزج بنفسه في اعلانات طنانة " سواء اكانت دوستويفسكية او تولستويانية".. فذلك امر سهل ، لكنه يريد ان يحقق نتائج سريعة. وهو يعتقد انه سيكون هناك تخفيف في حدة ازمة الشرق الأوسط " ولكن عليك ان تمنحنا الوقت الكافي . وكان من بين الاشياء الايجابية القليلة التي برزت في رسالة نيكسون، انه يرى ان الانسحاب الاسرائيلي يجب ان يصل الى الحدود الدولية .

كذلك ، فان العلاقات مع الاتحاد السوفييتي كانت لها مصاعبها ايضا . ففي شهر يناير (كانون الثاني) جاء بودجورني الى القاهرة بحجة حضور الاحتفالات بانتهاء بناء السد العالي ، وان كانت زيارته في الحقيقة تستهدف تقييم النظام الجديد . فقد كان الروس يخشون ان يندفع خلفاء عبد الناصر الى مغامرة عسكرية ليثبتوا جدارتهم . وفي اجتماع مع اعضاء وفد المفاوضات المصري حذر بودجورني بشدة من اهوال الحرب وقال : " اننا نعرف ما هي الحرب ".

لكنه حاول في ما بعد- بتحذير من السفير السوفييتي فلاديمير فينوجرادوف بشأن الأثر السيىء الذي تركه كلامه- ان يخفف من وطأة الأثر ، وتحدث بلهجة مشجعة . كما قال للفريق صادق عرضا ان الاسلحة التي طلبتها مصر سوف تصل .

وبعد ان سافر بودجورني طلب مني فينوجرادوف ان يعرف تقييمي للرئيس السادات، وكان جوابي : "انه رجل يحب ان يتوفر له وقت كاف للاصغاء لاية حجة، لكن القرار الذي يتوصل اليه في النهاية يكون قراره وحده . ولا بد لكل شخص من ان يمنحه الكثير من الوقت ليرى ويسمع كل شيء بنفسه ". (وللمناسبة، فان فينوجرادوف قضى بضعة ايام في اسوان بعد انتهاء الاحتفالات ، وروى لي حادثة طريفة . قال انه وزوجته كانا بدآ يلتقطان صورا للسد العالي، حين تقدم منهما ضابط بوليس ومنعهما من التقاط الصور قائلاً : " ممنوع ان تفعلا ذلك . انه سر") .

وخلال فترة قصيرة بعد ذلك، قام الرئيس السادات بزيارة سرية لموسكو يوم اول مارس (اذار) وكانت هناك ثلاثة امور يريدها من الروس . اولها ان يضع معهم استراتيجية عسكرية وسياسية مشتركة. وثانيها، ان توضع مصر على قدم المساواة مع اسرائيل بالنسبة الى التسلح ، وفي هذا قال لهم انه لا يطالب بتفوق في الاسلحة على رغم ان ذلك حق لمصر باعتبارها البلد المهزوم المحتلة ارضه، وكان يمكنه ان يفعل ذلك . وثالثها، خاص بالمعدل الحالي لارسال الاسلحة . وقد تبين للرئيس ان السوفييت عازفون عن التحدث في موضوع الاستراتيجية المشتركة ، وان كانوا مستعدين للبحث في مسألة السلاح. وقد حدث بين الجانبين خلاف بشأن طائرة قاذفة للصواريخ من طراز "اليوشن " كانوا عرضوها على مصر. وكان علي صبري- مستشار الرئيس في ذلك الوقت للشؤون المتعلقة بالقوات الجوية- قد وافق على قبول شرط وضعه السوفييت قبل ان ترسل الطائرة ، وهو الا يتم استخدامها الا باوامر من موسكو . وقال السادات لمضيفيه انه لا يمكنه ان يقبل هذا الشرط . واضاف : " لنفترض ان الاسرائيليين ضربوا عمق مصر مرة اخرى ، فهل المفروض ان انتظر الاذن من موسكو قبل ان ارد الضربة؟ ان ذلك يضعني في مركز غريب . فأنا رئيس لدولة مستقلة ، ولا يمكنني ان اتنازل عن أي جزء من استقلالي في الحركة " . وفي نهاية الاجتماع حاول بريجنيف ان يطمئنه فقال : " رويدك.. اننا سنقابلك في منتصف الطريق ". وكان من بين ما قاله له حين عاد من موسكو وروى لي ما حدث : " كان لا بد لي من ان اتخذ موقف الغضب ، لكني في النهاية حصلت على ما اريد " .

وحدث مزيد من الاحتكاك مع السوفييت في مناسبة اخرى في الشهر نفسه . كان السادات، في يوم ٢٥ مارس (آذار) ، يتحدث في اجتماع عقد في وزارة الحربية حضره كبار قادة القوات المسلحة وكبار الخبراء ا لسوفييت وبينهم الجنرال اوكينييف رئيس البعثة السوفييتية . وقال في حديثه انه يود ان يذكر الحاضرين ان من هذا المبنى بدأت ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ، وانه المبنى الذي اتخذه عبد الناصر مقرا لقيادته خلال حرب السويس العظيمة في العام ١٩٥٦، وان مصير مصر عاد مرة اخرى ليكون بين أيديها، وعلى الجميع ان يكونوا مستعدين للتحرك في اية لحظة على رغم ان هناك مشاكل كثيرة لابد من التغلب عليها قبل البدء في التحرك . وشكا بعض الضباط في اثناء الاجتماع من فعالية الاسلحة السوفييتية ومن التأخير في ارسال هذه الاسلحة ، وانبرى الجنرال اوكينييف يرد على ما بدا له نقدا للاتحاد السوفييتي، لكن الرئيس قال له انه ليس هناك ما يدعو الى الحساسية، وان الضباط لا يهاجمون الاتحاد السوفييتي وانه " في اجتماع كهذا لابد لكل شخص ان يتكلم بصراحة " . لكن المشاكل كانت قد بدأت تتخمر لدى السوفييت، فقد كانوا- كما تبين من قبل- يشكون في النظام الجديد، في حين ان عدم الثقة لدى المصريين ازداد نتيجة الطلب الذي تقدم به السوفييت للحصول على قاعدة بحرية ، وبسبب الصعوبات الخاصة بامدادات السلاح .

كذلك فقد نشأ موقف آخر في نحو الوقت ذاته تقريبا اثار مزيدا من سوء الفهم مع السوفييت . كانت علاقات مصر بالسعودية لا تزال فاترة ، لكن محاولة بذلت في الجزء الأول من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) لتحسينها . فقد جاء الى القاهرة حينذاك كمال أدهم نسيب الملك فيصل ومستشاره الذي يتولى سلطة الاشراف على المخابرات ويعتبر من اقوى الشخصيات نفوذا في المملكة . وقد تحدث خلال هذه الزيارة عن الوجود السوفييتي في مصر وعن الانزعاج الشديد الذي يسببه للامريكيين ، واشار الى اهمية هذه المسألة في وقت يحاول السعوديون زيادة اهتمام الامريكيين بمشاكل الشرق الأوسط . ورد الرئيس السادات ان مصر تعتمد على الاتحاد السوفييتي في اشياء كثيرة ، بينما الامريكيون يقدمون الى اسرائيل كل ما تطلبه ، الى حد انها استطاعت خلال حرب الاستنزاف ان تضرب مصر بالقنابل لمدة ١٧ ساعة متصلة. وقال الرئيس السادات لكمال ادهم : " اني لن آتي بالروس وحدهم ، لكني سآتي بالشيطان نفسه اذا كان في مقدوره الدفاع عني " . لكنه اضاف انه اذا تمت المرحلة الأولى من مراحل الانسحاب الاسرائيلي ، فان في استطاعته ان يعد باخراج الروس من البلاد .

وسأل كمال ادهم الرئيس ، عما اذا كان يستطيع ان يبلغ ذلك الأمريكيين ، فاجابه الرئيس بالايجاب . لكن ملاحظات الرئيس تسربت عن طريق السناتور جاكسون... ربما كوسيلة لمساعدة اسرائيل باثارة الضغينة بين مصر والاتحاد السوفييتي .

وهناك ملك عربي اخر كانت علاقاته بمصر لا تزال تجتاز مرحلة صعبة ، وهو الملك حسين . كانت هناك تقارير كثيرة نشرتها الصحف العالمية تقول ان الملك حسين عقد سلسلة من الاجتماعات مع الزعماء الاسرائيليين ، مع تركيز خاص على اسم ايجال الون نائب رئيسة الوزراء . وفي يوم ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) اتصل الرئيس بي تلفونيا ليقول ان الملك حسين يقترح ان يقوم بزيارة لمصر. وأحسست بالشكوك تراودني بالنسبة الى الاقتراح ، لانه اذا تمت الزيارة ، فان مصر ستبدو كأنها تقر ضمنا اي اتصالات سرية يكون الملك اجراها . وعلى ذلك ، فاني اقترحت ايفاد الفريق صادق الى عمان ليسأل الملك حسين من دون مواربة عما اذا كان قابل اي زعيم اسرائيلي ام لا. وقلت انه اذا نفى الملك هذه الاشاعات ، فاننا نقبل كلمته ونوافق على حضوره الى القاهرة . اما اذا ايدها فاننا لن نستطيع استقباله . ولقي الاقتراح قبولا ، وسافر الفريق صادق الى عمان، وقال لي بعد عودته انه وضع السؤال امام الملك ، لكن الملك راح يتحدث في موضوعات اخرى عامة، وحين توقف عن الكلام قال له الفريق صادق : " يا صاحب الجلالة.. انك لم تجب عن سؤالي " ، فرد الملك من دون اكتراث : " ذلك لاني لم اذهب لمقابلتهم . وقال الفريق صادق انه خرج بانطباع اكيد ان الملك قابل آلون . وعلى ذلك تقرر تأجيل الزيارة .

وكان من بين الزعماء العرب الذين جاؤوا الى القاهرة بعد ذلك بقليل : ياسر عرفات . ففي ٨ مارس (اذار) ١٩٧١ جاء لزيارتي في بيتي ومعه صلاح خلف (ابو اياد) وفاروق قدومي (ابو اللطف) . وكانت الساعة السادسة والنصف مساء . وبعدما قضينا معا نحو نصف ساعة توجهنا جميعا الى منزل الرئيس السادات في سيارة يابانية كانت قدمت هدية الى منظمة فتح . وكان عرفات هو الذي يقود السيارة. وكقاعدة، فان الجميع - باستثناء ابو اياد- كانوا يرفضون ركوبها لانها، في نظرهم، ليست ثورية . وكان الرئيس السادات تواقا الى ان يعرف ما تستطيع المقاومة ان تفعله في حالة نشوب حرب جديدة . واتفق على ان يبحث ياسر عرفات في تنسيق العمل مع الفريق صادق . وأكد الرئيس على وجهة نظره- وكانت وجهة نظر الرئيس عبد الناصر ايضا- ان على المقاومة ان تتجنب كل انواع الاستفزاز السياسي او العسكري للملك حسين ، واوصاهم بالا يكونوا طرفا في اية تسوية دولية يمكن التوصل اليها، وقال ان الملك يمكن ان يوقع .. اما انتم فلا . وقال لهم ايضا انهم مسؤولون عن العمل كي لا يسمح للقضية الفلسطينية بان تموت. وكان من رأي ابو اياد ان يسمح للملك حسين بالحضور الى القاهرة ، لأن في ذلك ما سيهدىء نفسه ، لكن السادات رفض وقال انه يعرف ان الملك - اذا جاء الى القاهرة- لن يهتم الا بالحديث عن امرين : اولا، الدعم الذي اتفق في الخرطوم على تقديمه الى الاردن،

والذي توقفت الكويت و ليبيا عن دفع نصيبيهما فيه عقب الصدام الذي حدث مع المقاومة في سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠، وثانيا ، الشكوى من نشاطات ياسر عرفات . وقال السادات ايضا ان مصر لا تزال تعتبر قطاع غزة جزءا من مسؤوليتها الخاصة، ولا توافق على اعطائه للاردن كما يلمح بذلك بعض الاسرائيليين .

وخلال شهر ابريل (نيسان) ١٩٧١ كانت هناك قضايا مختلفة تبرز على السطح . ففي الجبهة العربية كان هناك مشروع وحدة مصر وليبيا وسوريا ، وكان السودان اختير في البداية ليكون الشريك الرابع في هذه الوحدة، لكن الحكومة السودانية رأت ان البلاد ليست مستعدة بعد لمثل هذه الخطوة الكبيرة. وكانت قضية الوحدة هذه هي التي ترتبت عليها في ما بعد اثار واسعة بالنسبة الى الموقف السياسي الداخلي في مصر. كان السادات نفسه مهتما بالفكرة ، فقد كانت - فوق كل شيء- تمثل استمرارا السياسة حبيبة الى قلب عبد الناصر. وفضلاً عن ذلك، فان الوحدة بين هذه الدول الثلاث ستتضمن قيام مؤسسات سياسية جديدة ، وهذا يعني اجراء انتخابات جديدة يسفر عنها مجلس امة جديد، ولجنة مركزية جديدة للاتحاد الاشتراكي، وهما هيئتان لم تكن فيهما للرئيس السادات عندئذ اغلبية يمكنه الاعتماد على ولائها .

الجزء الثاني
سقوط جماعة علي صبري

وتركت وفاة عبد الناصر المسرح السياسي في مصر مائعا تحيط به الشكوك . كان الكل يحاولون وزن شخصية الرئيس الجديد . ولمجرد ان اتفق على التمسك بما جاء في الدستور من ان ترشيح الرئيس الجديد يتم عن طريق مجلس الامة ، بناء على توصية من اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي وتكون موافقة الشعب عليه بواسطة استفتاء عام ، اصبح منصب رئيس الوزراء هو المنصب الرئيسي الذي يركز عليه مختلف الاشخاص والجماعات انظارهم واهتمامهم .

وظل انور السادات موضع تأييد عدد من المستقلين داخل الحكومة، وفي مقدمتهم الدكتور محمود فوزي والمهندس سيد مرعي . وكانت هناك الجماعة الملتفة حول علي صبري التي كانت تسيطر على الاغلبية في مجلس الأمة وفي الاتحاد الاشتراكي، وجهاز المخابرات، وحركة الطليعة المختارة في الاتحاد الاشتراكي التي كان شعراوي جمعة وسامي شرف اعضاء فيها، والتي كان شعراوي جمعة نفسه هو المشرف عليها وعلى رغم اختلافهما مع علي صبري بالنسبة الى الكثير من الأمور، فقد كانت تجمع بينهما المصلحة المشتركة في الحيلولة دون اي شخص من خارج جماعتهم تكون لى سلطة حقيقية في اتخاذ القرارات . كانوا يريدون ان تبقى كل السلطة داخل الحكومة والحزب والجيش في ايديهم . كانوا سكارى بحب السلطة وان لم يكونوا مرتشين ، لكن السلطة التي ارادوها بعد وفاة عبد الناصر كانت ابعد ما تكون عن اي مضمون اجتماعي . كانوا يرددون مبادىء واقوال عبد الناصر بطريقة عمياء . وكانوا يريدون ان يجعلوا من الزعيم الراحل هرما رابعا ، وان يكونوا هم انفسهم الكهنة الاوائل الدائمين والوحيدين لضريحه.

وكان علي صبري يتطلع الى تولي منصب رئيس الوزراء ، في حين كان شعراوي جمعة وغيره قد دفعوا باسم الدكتور لبيب شقير رئيس مجلس الأمة لشغله كاجراء موقت ، لأن شعراوي جمعة كان يتطلع الى ان يحتفظ به لنفسه . اما حسين الشافعي فكان خارج جماعة علي صبري ، وكان يقف وحده.

وكان الجيش احد العوامل المجهولة في الموقف ، ولم تكن عواطفه السياسية واضحة . وكان الظن ان الفريق فوزي اساسا جندي محترف ولا علاقة له بالسياسة . ثم تبين في ما بعد انه متأثر، الى حد ما، بنفوذ جماعة علي صبري بحكم قرابته لسامي شرف وما خلقته من صلات وثيقة بينهما .

ومنذ البداية كانت تصرفات جماعة علي صبري قائمة على افتراض ان انور السادات سيكون رئيسا ضعيفا، وانهم لن يجدوا صعوبة كبيرة في التخلص منه اذا ما تمرد . وقد قال الرئيس في هذا الصدد: "انهم يريدون ان يفرضوا وصايتهم علي ، لكني لن اقبل ذلك ابدا " ، وسارع يظهر انه يعني ما يقول، وذلك حين فاجأ جماعة علي صبري واثارها بنبأ تكليف الدكتور محمود فوزي تشكيل الوزارة الجديدة يوم ٢٠ اكتوبر (تشرين الأول) .

وكان الرئيس السادات سألني بعدما ثبته الاستفتاء في منصبه عمن اراه خير من يشغل منصب رئيس الوزراء، واقترحت اسم الدكتور فوزي لسببين : الأول - انـي كنت ارى من الضروري- من وجهة النظر الدولية- ان يكون رئيس الوزراء الجديد شخصية معروفة في الخارج ، وان نظهر للعالم الثالث، وكذلك للقوتين العظميين ولأوروبا ان وفاة عبد الناصر لا تعني ان مصر ستغرق في المجهول . ولم يكن الرئيس السادات نفسه معروفا تماما في العالم الخارجي بعد، بينما الأمر مختلف بالنسبة الى الدكتور فوزي . وكلاهما معا يشكلان فريقا قويا . وكان السبب الثاني لاقتراح اسم الدكتور فوزي ، هو ان الحاجة تدعو الى وجود شخصية يعرفها الشعب ويثق في صاحبها.. شخصية الاب . فقد كان الشعب يخشى ويشعر بأن الصراع على السلطة بين خلفاء عبد الناصر يوشك ان يبدأ ، وان في تعيين الدكتور فوزي ما يدخل الطمأنينة الى نفسه .

وقال لي الرئيس السادات ان تفكيره يسير على هذا الخط نفسه، لكن هناك عقبة واحدة . فقد استقال الدكتور فوزي من عضوية اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي يوم ٣ اكتوبر، (تشرين الأول) وهو اليوم نفسه الذي استقلت انا فيه من دون اي اتفاق سابق بيننا . وسألني الرئيس عما اذا كنت استطيع اقناع الدكتور فوزي بقبول المنصب فوعدته بان افعل ، وتوجهت الى منزله في البدرشين، وامتد الحديث بيننا حول هذا الموضوع سبع ساعات . وكان الدكتور فوزي متردداً في البداية، لأ نه لم يكن جاهزا لأعباء المنصب ، كما كان يخشى ان الصراع على السلطة قادم لا محالة ، فضلاً عن انه لم يكن متأكدا من مدى السلطة الحقيقية التي ستكون لرئيس الوزراء . لكنه في النهاية اقتنع ، واتصلنا بالرئيس تلفونيا نبلغه النبأ السار. وكان من المقرر ان يتوجه الرئيس في ذلك اليوم الى مجلس الامة ليحلف اليمين بوصفه رئيسا للجمهورية ، واقترح ان يأتي الدكتور فوزي الى قصر الطاهرة بعد الانتهاء من مراسم حلف اليمين . وتوجهنا في سيارة الدكتور فوزي الى القصر، ووجدنا الدكتور لبيب شقير هناك . وكان قدم الى القصر- بحسب ما يقضي البروتوكول - ويقدم الشكر الى الرئيس بالنيابة عن المجلس لحضوره الجلسة. وهكذا فانه حين عرفت جما عة علي صبري باختيار الدكتور فوزي ليكون رئيسا للوزراء في اليوم التالي، فان النبأ اثار غضبا شديدا في نفوسهم ، وانصب جانب من هذا الغضب على شخصي، لمعرفتهم بالصداقة التي تربط بين الدكتور فوزي وبيني، ثم لأني شوهدت معه عند الرئيس الجديد، قبل تكليفه تشكيل الوزارة، مما يقطع بأن لي دورا في الموضوع ، وبدأ الشعور يراودهم بان الرئيس متجه الى الاستعانة بالمستقلين .

وفي يوم ٦ اكتوبر (تشرين الأول) عقد اجتماع آخر للجنة التنفيذية العليا للا تحاد الاشتراكي و مجلس الحرب لمناقشة الخطوات التالية بشأن وقف اطلاق النار. وكان الرئيس اعلن في حديثه يوم ٤ فبراير (شباط) موافقة على مد وقف اطلاق النار شهرا آخر . وكان الشهر قد انقضى، ولابد من اتخاذ قرار بشأن الخطوة التالية .. سلبا او ايجابا. واستطاعت جماعة علي صبري في هذا الاجتماع ان تضغط على الرئيس للموافقة على اصدار امر باستئناف العمليات العسكرية. وبذل افرادها ما في طاقتهم حتى اضطروه الى تحديد موعد قريب لاستئنافها تحدد له يوم ٢٦ ابريل (نيسان) وقد عارضت هذا الاتجاه عندما عرفت به، وقلت رأيي بصراحة ضده . فقد بدا لي ان من الخطأ جدا ان يتخذ قرار بشأن مسألة خطيرة كمسألة الحرب والسلام من دوافع تقوم على اعتبارات السياسة الداخلية البحتة.. وهو ما تحاول جماعة علي صبري ان تفعله.

وشهد اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للأتحاد الاشتراكي العربي يوم ٢١ابريل (نيسان) جلسة عاصفة، وقد اتصل الرئيس بي تلفونيا بعد انتهائها وقال : " ان الموقف تفجر". وكانت اللجنة تناقش مشروع الوحدة مع ليبيا وسوريا، وهو مشروع كانت جماعة علي صبري تعارضه دائما بحجة " التجربة التي لم يقدر لها النجاح للوحدة بين مصر وسوريا في العام ١٩٥٨ " . وكانوا يقولون ان حزب البعث السوري لا يوثق فيه . اما الليبيون فلم يكونوا شيئا يذكر بالنسبة اليهم ، وقد وصفهم علي صبري مرة في اجتماع للجنة المركزية بانهم " مجموعة من شباب الكشافة" ، وقال عن القذافي انه "مجنون " ومن الخطأ ربط مصير مصر بمثل هؤلاء الناس . والحقيقة ان السبب الحقيقي لمعارضتهم كان خوفهم الذي له ما يبرره من ان تضع نهاية لاحتكارهم السلطة . فاتمام الوحدة سيترتب عليه قيام مؤسسات واجراء انتخابات جديدة. وكان هذا هو نفسه، بطبيعة الحال ، بين اسباب رغبة الرئيس في اتمام الوحدة .

وفي هذا الاجتماع تحدث علي صبري وعبد المحسن ابو النور وضياء داود وشعراوي جمعة ولبيب شقير، وعارضوا الوحدة بشدة، ولم يؤيدها سوى الرئيس والدكتور فوزي . وقال لي الرئيس ان الجلسة شهدت تبادل عبارات قاسية، وان الاتفاق تم في النهاية على عقد اجتماع للجنة المركزية لمناقشة الانشقاق الواضح في القيادة السياسية للتنظيم السياسي . ولم يمضى وقت طويل - وكان ذلك امرا مفهوها- حتى تسربت انباء هذا الانشقاق ، وبدأت بعض العناصر في اللجنة المركزية تحشد قواها ضد الرئيس . واصبح شعراوي جمعة- وهو المسؤول عن التنظيم السياسي داخل الاتحاد الاشتراكي- نقطة التركيز في الصراع . وقد حاول جاهدا ان يتجنب اتخاذ موقف ينحاز فيه الى جانب من الجانبين . ولما طلب اليه الرئيس السادات ان يعلن رأيه في مشروع الوحدة احتج بانه ليس عضوا في اللجنة التنفيذية العليا، لكن الرئيس اصر، فاضطر شعراوي الى ان يعلن انه ضد الوحدة .

ويوم ٢٢ ابريل (نيسان) طلب الرئيس السادات الى السفير السوفييتي ان يحضر لمقابلته، وبعد ان دار الحديث بينهما حول مسائل مختلفة قال السفير : نسمع الكثير هذه الايام عن خلافات داخل اللجنة التنفيذية العليا . فهل هذا صحيح؟ ". ورد الرئيس ان ذلك صحيح ، واضاف قائلاً : " لدي نبأ اقوله لك.. لقد قررت تصفية علي صبري ". وفغر السفير فمه دهشة وسأل : " لماذا تقول لي هذا يا سيادة الرئيس؟ ". فقال الرئيس : " لأن الناس سيهولون من شأنه ، وسيستغلونه في شن حرب للاعصاب . سيقولون لكم ان رجل السوفييت الاول في مصر قد صفي .. وسترقص صحف الغرب امامكم بالجلاجل في محاولة لاثارتكم . لكني اؤكد لك انه ليس في هذا شيء موجه ضد الاتحاد السوفييتي . انها مسألة داخلية محض. واذا بدا لاحد ان يصور لكم الموقف بان ما سأفعله موجه ضد الوجود السوفييتي في مصر، ففي استطاعتكم ان تردوا اني اكون سعيدا لو انكم عززتم هذا الوجود " .

وكان يسود مصر طوال تلك الفترة جو شديد جدا من التوتر والعصبية. واذكر ان سامي شرف اتصل بي تلفونيا يوم ٢٣ ليقول لي انه يضع امامه صورة للرئيس عبد الناصر يتحدث اليها ويئن بالالم . وقال انه يشعر بعدما قابل الرئيس السادات في بيته في القناطر بتعاسة شديدة ، حتى لقد فكر في ان يلقي بنفسه في النيل . وكان الاخطر من ذلك- كما كشفت عنه التطورات في ما بعد- هي جلسات استحضار الارواح التي كان شعراوي جمعة وسامي شرف وغيرهم يعقدونها ويتحدثون خلالها ، عن طريق وسيط، بصوت الرئيس عبد الناصر، وقد قدمه اليهم استاذ في جامعة عين شمس له اهتمامات بعالم الارواح . وكانوا خلال تلك الجلسات يوجهون الى الروح المفترض انها لعبد الناصر مختلف الاسئلة التي تتعلق بقضايا اساسية. كانوا يسألون مثلاً : هل يهاجمون اسرائيل او لا يهاجمونها؟ وهل سيعين شعراوي جمعة رئيسا للوزراء ام لا؟ وغيرها ، وغيرها... وكان اهتمامهم بعدم سقوط كلمة واحدة من الصوت الذي يأتيهم من وراء القبر، من الشدة، بحيث سجلوا كل الجلسات على اشرطة . وكانت لحظة حزينة في تاريخ مصر، اذ يرى ساسته الكبار يتصرفون بهذه الطريقة. لكن الحقيقة انهم كانوا تعودوا على تلقي الاوامر من عبد الناصر الى درجة افقدتهم القدرة على التفكير.

وفي تلك الاثناء كان الرئيس السادات يبذل الجهد للحصول على التاييد في مجلس الامة ولا سيما بين اعضاء الصعيد، في حين حاولت الجماعة ان تنظم قواها في اللجنة المركزية، لانها لم تكن واثقة تمام الثقة منها. وكانت تحاول تأجيل الموعد الذي تحدد لاجتماع اللجنة مفضلة الاحتفاظ بالاغلبية المفروض انها تتمتع بها في اللجنة، اداة غير مباشرة للضغط ، بدلاً من ان تكون سلاحا يمكن- ان استخدم بالفعل- ان ينقلب ضدها.

ويوم ٢٦ ابريل (نيسان) غضب شعراوي جمعة اشد الغضب حين استدعاه الرئيس وابلغه انه لا يرى حلاً آخر سوى عقد اجتماع للجنة المركزية يتم الاقتراع فيه بالتأييد على مشروع الوحدة . وقال شعراوي انه لا يرى كيف يمكن اللجنة ان توافق على ذلك. وعندئذ سأله الرئيس عما اذا كان قد قرأ الكتاب الذي الفه آمسترونج عن حياة اتاتورك باسم "الذئب الرمادي "، ثم قال له : " كان اتاتورك ضاق ذرعا بجمعيته الوطنية، وتوجه الى دارها في احد الأيام وقال لأعضائها النواب : انكم لستم على مستوى كاف لتكونوا متآمرين ، ولذا فاني اقترح ان تعودوا الى منازلكم ، فانتم جميعا مفصولون ". ولم يغب المعنى الذي اراده الرئيس من هذه القصة عن فطنة شعراوي .

وشهدت اللجنة المركزية عندما اجتمعت يوم ٢٥ ابريل (نيسان) صداماً حاداً بين الأطراف المتنازعة.

فقد تعرض الرئيس السادات لاستفزازات شتى ، بينما شكا علي صبري من ان الرئيس يقاطعه، وقال وهو يصيح : " لا يمكن احدا ان يمنعني من الكلام " . وبلغ الاجتماع ذروة في التوتر، وتوقفت الجلسة لاستراحة عقد خلالها اجتماع للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي . ولم اكن انا عضوا في اللجنة التنفيذية، لكني وجدت نفسى اتجه مع شعراوي جمعة الى الطابق الثاني . وحين وصلنا الى باب الغرفة التي سيعقد فيها الاجتماع استدرت الناحية الأ خرى لأعود من حيث اتيت ، لكن الرئيس السادات لمحني ودعاني الى الدخول .

وكنت حضرت اجتماع اللجنة المركزية وفي نيتي ان اتكلم ، وحملت معي محضر اجتماع بنغازي الذي اتفق فيه لأول مرة على فكرة اقامة وحدة بين مصر وليبيا وسوريا . وكنت في اجتماع بنغازي عضوا في وفد مصر، اجلس في جوار الرئيس عبد الناصر واسجل محضر الاجتماع ، وحين عدنا الى القاهرة كتب المحضر على الآلة الكاتبة، واعيدت الي نسخة عليها تعليقات بخط عبد الناصر نفسه. وكان في نيتي ان اسأل في اجتماع اللجنة المركزية عما نحن نتصارع عليه ، ما دام لدينا البرهان بالوثائق على ان الوحدة امر وافق عليه الرئيس عبد الناصر، وان ما يفعله الرئيس السادات لا يتجاوز مجرد اتمام عمل لعبد الناصر. لكن جو الاجتماع في اللجنة المركزية عقب الصدام بين الرئيس وعلي صبري، كان تكهرب الى درجة اصبح من المستحيل معها على اي شخص ان يتكلم ، خصوصا بعدما طلب الرئيس الاقتراع على مشروع الوحدة ، فلم ترتفع في اللجنة المركزية غير اربع ايد بالموافقة ، من بينها يدي !
وعلى اي حال، فاني عندها دخلت غرفة اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي طلبت الاذن بالكلام . وقلت ما كنت اريد ان اقوله ، واضفت ان الفريق فوزي ومحمود رياض حضرا اجتماع موسكو الذي ابلغ فيه عبد الناصر الزعماء السوفييت مشروع الوحدة المقترحة، وانه اذا كان هناك من لديه اي شك في ما اقول فليسأل هذين المسؤولين . لكن الفرصة لم تتح لي لأكمل كلامي، فقد قاطعني عبد المحسن ابو النور ليقول بلهجة من يشكو، اني اوسع شقة الخلاف بين الطرفين بدلاً من ان اضيقها .
ولما كان الرئيس لا يزال عند رغبته في الموافقة على المشروع ، وكوسيلة لكسب الوقت ، قال انه يرى ان الموضموع اهم من ان يتخذ قرار بشأنه في جلسة واحدة ، واقترح تشكيل لجنة فرعية تبحثه وتحاول الحصول على تعديلات تدخل عليه وتقرها سوريا وليبيا . ولقي الاقتراح قبولاً .

وبعدما انفض الاجتماع توجهت الى منزل الرئيس، وكان بادي الاكتئاب ، وكرر حكاية " الذئب الرمادي " اكثر من مرة . وبعد ذلك ببضعة ايام تجلى اصرار المعارضة على الدخول في المجابهة في اثناء زيارة الرئيس لمدينة حلوان الصناعية في احتفال العمال بيوم اول مايو (ا يار) حيث نظم الاتحاد الاشتراكي تظاهرة معادية لى بغية ارهابه ، لكن التظاهرة فشلت في تحقيق الغرض منها، والقى الرئيس خلالها خطابا تحدث فيه بصراحة عن تصميمه على تصفية كل "مراكز القوى" . وفي اليوم التالي تحول الى سياسة الهجوم واصدر قرارا قال بكل بساطة : " قرر الرئيس انور السادات اعفاء السيد علي صبري من منصب نائب الرئيس اعتبارا من اليوم " . ولمجرد توقيع القرار حاول سامي شرف وشعراوي جمعة الاتصال بالرئيس لاقناعه بتغيير كلمة " اعفاء " ، بحيث يبدو كأن علي صبري استقال. لكن الرئيس رفض تغييرها واوضح انه يريد للجميع ان يعرفوا مصدر السلطة الحقيقية في الدولة.

ومما زاد الصراع الداخلي على السلطة تعقيدا ان كان حدد يوم ٣ مايو (ايار) موعدا لزيارة روجرز للقاهرة . وكان روجرز بذل قبل ذلك محاولات كثيرة لكي يسافر الدكتور فوزي او اي وزير كبير الى واشنطن، فلما تعذر ذلك، فانه قرر ان يحضر الى القاهرة بنفسه وان يأتي معه بجوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية. وتكشف بعد وصولى انه لم يأت معه بمقترحات جديدة، وانه لا يزال يلعب على نغمة "الحل الموقت " نفسها، وبعد وقف اطلاق النار الى اجل غير مسمى، واعادة فتح قناة السويس في مقابل انسحاب اسرائيلي محدد. وقد ابلغته مصر انها ترفض هذا، واوضحت وجهة النظر المصرية في ورقة تحديد موقف كانت اعدت من قبل . وكانت تتضمن ان على اسرئيل ان تجيب عن اسئلة الدكتور يارنج، وتوافق على انسحاب يتم على مرحلتين : الاولى- الانسحاب الى خط بين العريش ورأس محمد يبدأ العمل بعدها في تطهير القناة ، وتعبر القوات المصرية الى الضفة الشرقية. والثانية- انسحاب القوات الاسرائيلية من بقية اراضي سيناء وقطاع غزة . وتشرف قوات الامم المتحدة على عملية الانسحاب وتبقى في قطاع غزة وشرم الشيخ . وحين تتم المرحلتان تماما، فانه يمكن عندئذ ان يتم اتفاق على المناطق المنزوعة السلاح، وعلى مد اطلاق النار لمدة ستة اشهر اخرى . فاذا رفضت اسرائيل الانسحاب التام ، فان مصر تحتفظ لنفسها بالحق في تحرير اراضيها المحتلة بالقوة .

وقد اعرب روجرز عن رأيه في ان مدى الانسحاب الاسرائيلي يمكن ان يوازي بالضبط بقوة ضمانات السلام والامن التي تكون مصر مستعدة لتقديمها ، لكن محمود رياض عاد الى مسألة مقترحات الدكتور يارنج الاخيرة بشأن تقديم تعهد مكتوب من جانب مصر بالسلام ، وتعهد مماثل من جانب اسرائيل بالانسحاب ، على اساس قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢، وقال ان مصر قبلت تقديم هذا التعهد بينما رفضت اسرائيل أن تقدمه، ومع ذلك، فان الولايات المتحدة ماضية في تزويد اسرائيل بالسلاح . وقال روجرز ان حكومته تريد السلا م ، لكنها غير قادرة على الضغط على اسرائيل . وعندها انفجر محمود رياض وقال لروجرز متسائلاً : " اليس هناك فرق بين الولايات المتحدة وفولتا العليا او جابون؟ ها هي اسرائيل تضعكم امام تحد صارخ . انتم تقولون انكم تحاولون الضغط عليها، لكنها ترفض هذا الضغط، فكيف تفسر ذلك ". واقترح رياض- ولم تكن تلك اول مرة يقترح هذا الاقتراح- ان تفرض الولايات المتحدة حظرا على ارسال السلاح الى اسرائيل، با عتباره الوسيلة المؤثرة الوحيدة للضغط عليها .

وبعدما عاد روجرز الى واشنطن سافر سيسكو الى اسرائيل وعاد الى القاهرة بمعلومات غاية في الغرابة. فقد ذكر ان الاسرائيليين لا يتحدثون عن انسحاب (على اساس شروطهم) لا يتجاوز ٥ الى ١٠ كيلو مترات على الضفة الشرقية للقناة ، ويشمل خط بارليف وحسب ، وانما يشترطون ان يترك هذا الحصن سليما. ليس هذا فقط ، بل انهم يشترطون ان يتولى شؤونه مدنيون اسرائيليون تحت اشراف الامم المتحدة ، بحيث تعود القوات الاسرائيلية الى احتلاله اذا ساءت الامور. وحاول الاسرائيليون في ذلك التشبيه بما حدث في قاعدة القناة ، حيث سمح لبريطانيا بالاحتفاظ بعدد من المدنيين فيها وفقا لشروط الاتفاقية التي وقعتها مع مصر سنة ١٩٥٤.

وفي ساعة مبكرة من صباح يوم ١٠مايو (ايار) جاءت ابنة الرئيس السادات الى منزلي برسالة تقول ان والدها يريد ان يراني بصورة عاجلة. ودهشت لأن الرئيس لم يتصل بي تلفونيا ، او يبعث بالرسالة مع احد سكرتيريه. وتوجهت الى منزل الرئيس على الفور. وكان يجلس على " فوتيل " ويرتدي "البيجاما " و "الروب "، وقد وضع امامه جهاز تسجيل ، وكانت لديه قصة غاية في الغرابة راح يرويها لي .

قال : في الساعة الثانية بعد منتصف تلك الليلة جاء الى المنزل ضابط بوليس ورن الجرس، وقال لرجال الحرس انه يريد ان يقابل الرئيس شخصيا لامر غاية في الخطورة، وانه يحمل دليلا على مؤامرة تحاك ضده. واتصل الحرس بسكرتير الرئيس فجاء وحاول اقناع الضابط باستحالة ايقاظ الرئيس في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل . لكن الضابط الح باصرار، وفي النهاية قال " حسنا.. سأذهب بشرط ان تسلمني اقرارا خطيا باني بذلت كل ما استطيع لكي اقابل الرئيس، لكنكم لم تمكنوني من ذلك . اني لا اريد ان اتعرض للوم في ما بعد بالنسبة الى اي شيء قد يحدث للرئيس ". وتأثر السكرتير بما سمع، وتبين من مناقشته انه واحد من الضباط في ادارة الامن المسؤولة عن حفظ الاشرطة وتسجيلات المكالمات التلفونية. وقد احضر معه شريطين يريد ان يسمعهما الرئيس بنفسه . وهكذا ايقظوا الرئيس، واسمعه الضابط الشريطين، فذهل لما سمع . وظل جالسا امام الشريطين يديرهما مرة ومرة حتى الفجر، حين بعث بابنته الي لأنه لم يعد يطمئن الى سلامة الحديث بالتلفون .

وبعدما استمعت الى الرئيس قلت له اني ارى ان الشخصين الرئيسيين في الموقف في ما يتعلق به هما الفريق الليثي ناصيف قائد الحرس الجمهوري ، والفريق محمد احمد صادق رئيس اركان القوات المسلحة . ذلك ان الرئيس كان تحدث الى الفريق الليثي ناصيف في شهر مارس (آذار) عندما بدأ يشعر بالمعارضة النشطة تتزايد ضده ، وقال الليثي عندئذ انه كجندي محترف سيطيع اي امر يصدر اليه من السلطة الدستورية الشرعية . وفي ذلك الوقت كان سامي شرف- وهو احد الاعضاء البارزين في جماعة علي صبري- وزيرا لشؤون الرئاسة . وكان بحكم منصبه على اتصال شبه دائم بقائد الحرس الجمهوري . وفي الوقت نفسه ، فان الفريق الليثي كان صديقا لسامي شرف وموضع ثقته ، لكن الاحداث اثبتت في ما بعد ان ولاءه للسلطة الشرعية في البلاد احتل المكان الاول . اما الفريق صادق، فكان الرئيس قابله والفريق محمد فوزي في اثناء زيارته لاحدى القواعد العسكرية يوم ١٢ مايو (ايار) . وفي تلك الزيارة بدا بوضوح ان الفريق صادق على علم بما تحمله الرياح . فقد انتهز الفرصة ليقول للرئيس على انفراد: "نحن نفهم موقفك ". وكان في قوله هذا الكفاية .

وقرر الرئيس ان يتحرك . واصدر قرارا باقالة شعراوي جمعة وتعيين ممدوح سالم ، محافظ الاسكندرية، وزيرا للداخلية . وكان ممدوح سالم بمحض الصدفة عضوا بارزا في حركة الطليعة شبه السرية التي كان المفروض انها تشكل الدائرة الضيقة في الاتحاد الاشتراكي ، وكان مكلفا بصفة خاصة توجيه النشاط السياسي داخل تنظيم البوليس، وكان رئيسه في الطليعة شعراوي جمعة نفسه . وهكذا عهد باليد اليمنى الى شعراوي جمعة ان توجه اليه الضربة القاضية، مما يوضح ان الطليعة لم تكن اكثر من صرح من القش .

وقد حاول سامي شرف ان يقنع الرئيس بعدم المضي في تنفيذ قرار اقالة شعراوي، ثم اتصل به بعد نحو ثلاث ساعات ليقول أنه سيقدم استقالته اذا اقيل شعراوي .
وكان هوس الجماعة بتسجيل المكاليات التلفونية غريبا حقا، كما كان واحدا من اسباب دمارهم . ففي مصر ثلاثة انظمة للاتصال التلفوني ، احدها النظام العادي ، والثاني نظام لاتصال المسؤولين في الحكومة من وزراء وغيرهم ، والثالث دائرة صغيرة قاصرة على نحو ٢٥ شخصا تضم رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء ، وبعض اعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ، وقادة القوات

المسلحة ومدير المخابرات ، وعددا قليلاً آخر من بينهم - في ذلك الوقت - انا نفسي . وقد ضم اسمي الى القائمة حين اصدر الرئيس عبد الناصر قرار تعييني وزيرا للارشاد القومي . وكانت مكالمات هذه المجموعة وضعت منذ آخر شهر ابريل (نيسان) تحت الرقابة بأمرمن احمد كامل مدير المخابرات اوحى اليه به سامي شرف . وسجلت كل مكالمة دارت عن طريقها بما فيها المكالمات بين اعضاء الجماعة انفسهم . وفي حوالى الوقت نفسه تقريبا اصدر شعراوي جمعة ، بوصفه وزيرا للداخلية ، امرا بتسجيل مكالمات جميع اصدقاء الرئيس ... وكان ذلك يعني مراقبة مكالمات الرئيس نفسه .

ومساء يوم ١٣ مايو (ايار) طلب الرئيس من وزير الداخلية الجديد مصادرة جميع الاشرطة الموجودة في ادارة الامن بالوزارة ، وان يستعين بمجموعة من الحرس الجمهوري اذا دعت الضرورة الى ذلك. وقد نفذ الوزير الامر، وصحب معه اثنين من ضباط الحرس .

وعند ذلك لعب اعضاء الجماعة بما ظنوا انه ورقتهم الرابحة، فاعلنوا استقالاتهم الجماعية، حسبانا منهم ان البلاد ستتعرض لشلل من دون وزراء للقوات المسلحة والمخابرات والاعلام ، ومن دون معظم الاعضاء البارزين في الاتحاد الاشتراكي . وكانوا يتوقعون رد فعل واسع النطاق من بين صفوف وتنظيمات الاتحاد الاشتراكي يطالب باعادتهم الى مناصبهم ، ولكن لم يحدث شيء من هذا على الاطلاق.

وقد بقيت مع الرئيس في تلك الليلة الى نحو الساعة العاشرة والنصف مساء، ثم تركته لاعود الى منزلي، وقابلت في الطريق قائد الحرس الجمهوري . وكنت بدأت اتناول عشاء سريعا عندما ادرت الراديو وسمعت نبأ الاستقالات . وكان من الواضح بالنسبة الي ان هذه الاستقالات ترقى الى مستوى الانقلاب الفعلي ، وكنت على وشك ان اتصل تلفونيا بالرئيس عندما رن جرس التلفون وكان الرئيس هو الذي يطلبني . لقد استمع الى النبأ من الراديو، ويريدني ان اعود الى منزله على الفور .

وحين عدت كان هادىء الاعصاب ، وقد قبل الاستقالات كلها . وفي اثناء الليل استقبل الفريق الليثي ناصف مرات عدة حيث كانت قوات الحرس الجمهوري تقف في حالة تأهب لمواجهة اي تحرك طائش يمكن ان تقوم به الجماعة. كذلك، فانه تلقى مكالمات تلفونية عدة من الفريق صادق عن الموقف في القوات المسلحة، كشفت عن ان كبار الضباط دعوا لاجتماع حضره كل من الفريق صادق والفريق فوزي ، وتحدث فيه الفريق فوزي قائلاً ان البلد سيباع للأمريكيين وانه مستقيل من منصبه ، وعند هذا تدخل الفريق صادق ليقول له : " سيادة الوزير.. ما دمت قد استقلت فاني اقترح ان تذهب الى بيتك وتستريح... ان واجبنا ان نحاول ابقاء الجيش بعيدا عن السياسة " . وقد طلب الرئيس الى الفريق صادق بالتلفون ان يأتي لمقابلته في منزله . ولمجرد ان وصل اقسم اليمين امام الرئيس كوزير للحربية بدلاً من الفريق فوزي . وفي الوقت نفسه استدعى اللواء احمد اسماعيل من المعاش ليتولى منصب مدير المخابرات . وهكذا لم يعد هناك ما يدعو الى القلق بعدما ساد الاطمئنان بالنسبة الى موقف الحرس الجمهوري والجيش . وكان من الغريب حقا ان يرى المرء مدى الخطأ الشديد في التقدير الذي وقعت فيه الجماعة . فلم يدرك افرادها ابداً مدى عدم شعبيتهم في البلاد . وكانوا كلهم تقريبا – ولاسيما علي صبري وشعراوي جمعة وسامي شرف – على اتصال ما بشبكة المخابرات أيام حكم عبد الناصر .
والآن اصبح لنظام حكم عبد الناصر وجهان : وجه الانجازات العظيمة ، ووجه الاكراه . ولست اعتقد شخصياً ان هذه الانجازات – ومنها تحقيق الاستقلال ، وتأميم قناة السويس ، والدور الذي قامت به مصر في عالم عدم الانحياز وضد النفوذ الامبريالي في الشرق الاوسط كحلف بغداد ، والاصلاحات التي تحققت لظروف العمال ، ومجانية التعليم ، والاصلاح الزراعي ، وعملية التحول الاشتراكي الذي شمل بناء دولة الرفاهية على رغم الهجمات المستمرة من جانب قوى الاستعمار واسرائيل – كان يمكن ان تتحقق من دون قدر معين من الاكراه . لكن الانجازات الايجابية توقفت بعد هزيمة العام ١٩٦٧ لأن موارد البلاد كلها وجهت للمعركة المقبلة ، بينما بدأت أعمال الاكراه تظهر اكثر وضوحاً . وعندما توفي

الرئيس عبد الناصر اخذ دعاة الاكراه ومنفذوه على عاتقهم ان يجعلوا منه ايديولوجية للنظام الجديد . وكانوا يشغلون كل المناصب الرئيسية في الدولة تقريبا . وقد احس الشعب بهذا واصبح يكره من رأى فيهم طغاة جداً . كذلك فإني واثق من ان جماعة علي صبري لم تقدر حق التقدير قوة الشرعية في بلد كمصر اعتمد طوال تاريخه على النظام في الري وما يستتبعه من حاجة الى سلطة مركزية لتوزيع المياه لا تقل عن الحاجة الى المياه نفسها ، لقد كان المصريون دائما حساسين جداً بالنسبة الى موقع السلطة الشرعية . وهم يعرفون ان انور السادات هو رئيسهم الشرعي المنتخب . وكان ذلك مصدر قوة عظيمة له .

وفي السادس عشر من مايو (ايار) ، وهو اليوم التالي للذروة عندما صدر قرار تحديد اقامة اعضاء الجماعة طلب السفير السوفييتي مقابلة الرئيس . وبدا في اثناء المقابلة محرجا . وقال له الرئيس انه سبق ان حذره ان ذلك سيحدث ، وأكد له مرة اخرى ان ما حدث ليس موجها ضد الاتحاد السوفييتي في اي شكل من الاشكال . وقال السفير انه لأمر يدعو الى الاسف ان الكثيرين ممن حددت اقامتهم اشتركوا في مفاوضات سرية في موسكو . (وقد سمعت قصة عن سامي شرف حدثت عندما كان يرئس وفدا مصريا لمؤتمر الحزب الشيوعي في موسكو في اواخر ابريل (نيسان) . لقد طلب سامي شرف لقاء خاصا مع بريجنيف قال للزعيم السوفييتي في اثنائه ان عبد الناصر عهد اليه- وهو على فراش الموت- بمسؤولية المحافظة على روابط الصداقة بين مصر والاتحاد السوفييتي . ونظر اليه بريجنيف وقال : "اذن تعال حتى اضربك علقة " . وبدت الدهشة على سامي شرف وقال : " ولماذا تريد ان تضربني علقة يا سيادة السكرتير العام ؟ " . فقال بريجنيف : " الا تعرف قصة الفلاح الروسي الذي طلب- وهو على فراش الموت – الى ابنه ان يعد بالمحافظة على سلامة " فازة " اثرية تحتفظ بها الاسرة كمجلبة للحظ؟ لقد سأل ابنه عما اذا كان يقبل تحمل المسؤولية في ما لو كسرت " الفازة "، وحين رد بالايجاب قال له الأب : " تعال اذن اضربك علقة ... وضربه بالفعل وسأله الأبن : " ولكن لماذا تضربني وانا لم أكسرها ؟ " فقال الأب : اني اضربك حتى تظل تذكر ذلك ، اذ ما فائدة ان اضربك بعد ان تكون "الفازة" قد كسرت؟ ". لكني اشك في ما اذا كان سامي شرف قد فهم مدلولات هذه القصة ومغزاها .

وكان سامي شرف قد خول في اثناء وجوده في موسكو ان يناقش مع السلطات السوفييتية موضوعين : اعداد معاهدة تضع العلاقات المصرية السوفييتية على أسس رسمية ، وانشاء اكاديمية بحرية في مرسى مطروح، كان السوفييت لا يزالون مهتمين جدا بها . واتفق خلال مناقشة هذين الموضوعين على ان يسافر مسؤول سوفييتي كبير الى القاهرة لمواصلة مناقشة الموضوعين ، ووصل هذا ا لمسؤول الكبير- وكان الرئيس بودجورني- بالفعل الى القاهرة يوم ٢٥ مايو (ايار) . (وقد حاول سامي شرف بعد الاجتماع العاصف الذي شهدته اللجنة التنفيذية العليا للا تحاد الاشتراكي ان يقنع فلا ديمير فينوجرادوف بعدم الدخول في أي تعامل مباشر آخر مع الرئيس السادات ، وان ينتظر الى ان يصل المبعوث السوفييتي)، وكان رد فينوجرادوف على الطلب مائعا لم يلتزم فيه بشيء . وقد سجل سامي شرف هذا الحديث ايضا .

وفي يوم ٢٦ مايو (ايار) اطلعني الرئيس على نتا ئج زيارة بودجورني ، وقال انه خرج بانطباع ان السوفييت يشعرون بان كل شيء في مصر الآن مضطرب ومعكوس بالنسبة اليهم ، وانهم- على رغم تحذيراته- قد تأثروا الى حد كبير بما كتب في صحف الغرب عن سقوط جماعة علي صبري . وقال ان بودجورني حمل معه مشروع معاهدة جاهز للتوقيع ، وانه (الرئيس) سيوقعه. وقال ايضا انه كان يفضل ان يتريث، ولكن السوفييت يبدون في عجلة من امرهم . وذكر ان اهم بندين في المعاهدة هما البند الذي ينص على ان الدولتين الموقعتين ستتعاونان بعضهما مع بعض في حالة اي تهديد للسلام ، والبند الذي يتعهد فيه السوفييت بان يزودوا مصر بالمعدات اللا زمة لازالة آثار العدوان الذي وقع عليها . وعلى رغم اني لم اكن اعارض مطلقا اي عمل لتوثيق علا قات مصر بالاتحاد السوفييتي، الا انه كان لدي بعض التحفظات التي اعربت عنها في حديث تلفزيوني بشأن المعاهدات التي توقع بين الدول الكبرى

والدول الصغيرة بوجه عام ، وخاصة ان مثل هذه المعاهدات تركت في نفوس المصريين شعورا سيئاً كنتيجة للمعاهدة الانكليزية/ المصرية في العام ١٩٣٦. وكان من المؤسف- من وجهة نظري- ان المدة المحددة للمعاهدة السوفييتية/ المصرية كانت عشرين عاما، تماما كمدة المعاهدة الانجليزية/ المصرية. لكنها عدلت قبل التوقيع الى خمسة عشر عاما . وذكر الرئيس السادات انه صحب بودجورني في سيارة مكشوفة طافت شوارع مصر الجديدة، وانه وضيفه استقبلا استقبالا حماسيا اثار دهشة بودجورني الذي كان يظن ان مشاعر الجماهير مع جماعة علي صبري .

وكان الاميركيون بطبيعة الحال سعداء بسقوط الجماعة، لكنهم حاروا في تفسير توقيع معاهدة مع السوفييت بمثل هذه السرعة . وكان بيرجس قد سافر الى الولايات المتحدة يوم ٨ يونيو (حزيران)، وقابل الرئيس قبل سفره ليسلمه رسالة من الرئيس نيكسون ، تضمنت ان الرئيس الأمريكي يتطلع الى مزيد من الاتصالات مع الرئيس السادات " بالوسائل الديبلوماسية الهادئة" ، وأكد للرئيس ان كل رسالة يبعث بها الى واشنطن ستلقى اكبر قدر من الاهتمام .

الجزء الثالث

الفلسطينيون والسودانيون

اوضح سقوط جماعة علي صبري للعالم ان انور السادات ليس بالرئيس الضعيف الذي يسد خانة فقط، وانما هو رجل يجب ان يحسب حسابه . وبدأ اتصال الدول العظمى به يزداد ، كما بدأ زعماء العرب ينظرون اليه باهتمام اكبر.

وفي منتصف شهر يونيو (حزيران) توقف الملك فيصل في القاهرة في اثناء عودته الى بلاده من زيارة رسمية لواشنطن بدعوة من الرئيس نيكسون ، وذكر ان الامريكيين سألوه باهتمام شديد عن تفسيره للاحداث الاخيرة في مصر، بما فيها حدث توقيع المعاهدة المصرية/ السوفييتية، وقال انه اعرب لنيكسون عن ثقته التامة في ان مصر لا يمكن ان تصبح بلدا شيوعيا . وكنت قابلت الملك في اثناء زيارته للاسكندرية ، وقال لي انه شرح للرئيس نيكسون في اثناء مأدبة عشاء اقامها نيكسون تكريما لى نظريته التي يؤمن على اساسها ان البلشفية هي نتاج للصهيونية، وقال ان الرئيس الأمريكي ابدى اهتماما كبيرا بما سمع ، وطلب اليه ان يكرر قوله هذا لسبيرو اجنيو نائب الرئيس، ولريتشارد هيليز مدير المخابرات ، ففعل . وكان من الواضح ان الملك سعيد باحساسه انه استطاع أقناع تلك الشخصيات القوية بحقيقة سياسية اصيلة ومهملة .

وكان في مصر في ذلك الوقت ثلاثة من زعماء المقاومة الفلسطينية هم ياسر عرفات و خالد الحسن وفاروق قدومي يريدون مقابلة الرئيس السادات والملك فيصل كليهما ، وتمكنت ، من ان ارتب لهم اللقاء مع الرئيس والملك في الفترة الوحيدة المتاحة ، وكانت في القطار الذي ركبوه من الاسكندرية الى القاهرة . وقال لهم الرئيس في اثناء هذا اللقاء ان مفتاح الوصول الى الملك حسين في يد الملك فيصل ، وانه حتى ولو لم يستطع ان يساعدهم بطريقة ايجابية ، فإنه يستطيع ان يحول دون اجراءات اخرى يتخذها الملك حسين ضدهم . وانتهى اللقاء الى اتفاق على ان تقوم حكومات مصر والسعودية والكويت وسوريا بجهد آخر للتوسط بين الملك حسين والفدائيين بيد ان الملك فيصل عدل بعد ذلك عن اشراك الكويت في هذا الجهد ، كما ان الرئيس السوري حافظ الاسد ابى المساهمة فيه ، ولم تبق سوى مصر والسعودية تؤديان هذه المهمة غير المشكورة .

وفي اعقاب الرسالة التي بعث بها الرئيس نيكسون بشأن " وسائل الديبلوماسية الهادئة" تلقت مصر يوم ٤ يوليو (تموز) رسالة من روجرز ذكر فيها انهم اتموا دراسة الموقف ولديهم افكار يودون ان يقدموها الى الاطراف المعنية . وسأل عما اذا كان من الممكن ان يقوم دونالد بيرجس ومايكل سترنر رئيس

القسم المصري في وزارة الخارجية بحمل هذه الافكار الى القاهرة لمناقشتها . وكان سترنر عين مرافقا للرئيس السادات في اثناء الزيارة الرسمية التي قام بها الى واشنطن العام ١٩٦٦ بوصفه رئيسا لمجلس الأمة . وجاء الاثنان الى القاهرة ، وحضرت اجتماع الرئيس بهما يوم ٧ يوليو (تموز) ، تحت ظلال شجرة "الفيكس" الضخمة التي يعود تاريخ زراعتها الى ايام محمد علي والتي تتوسط حديقة استراحة الرئيس في القناطر الخيرية. وكان الغرض الاساسي الذي جاء الاميركيان من اجله هو الاعراب عن اعتقاد واشنطن ان الموقف في طريقه الى التحرك ، وانه حين يتحرك ، فان حركته ستكون سريعة. كذلك فانهما جاءا يسألان عما اذا كان توقيع معاهدة الصداقة بين مصر والاتحاد السوفييتي الذي تم بعد زيارة روجرز يعني ان اتجاهات مصر نحو الاتفاق السلمي قد تغيرت . وكان رد السادات على السؤال، النفي المطلق . وقال : اعطوني ورقة صغيرة تتضمن شروطاً معقولة وأنا مستعد لتوقيعها هنا .. الآن.. تحت هذه الشجرة " . وقد انتقل الاحساس بالتفاؤل لدى الزائرين الأ مريكيين الى الرئيس ، وظن ان الموقف بدأ يتجه اخيرا نحو اتفاق سلمي . لكن الحقيقة ان شيئا من ذلك لم يحدث . فقد اوفدت واشنطن سيسكو الى اسرائيل لاجراء محادثات مع ديان الذي كان الامريكيون يعلقون عليه في ذلك الوقت آمالاً كبارا، لكنه لم يستطع أن يحصل منه على شيء . وسافر سترنر الى واشنطن ، وبعده بيرجس ، واطبق الصمت بعد سفرهما ، ولم تسمع مصر شيئاً من امريكا لشهور عدة ، وأثار ذلك شعوراً بخيبة الأمل الشديدة لدى الرئيس ، وكان ذلك هو التاريخ الذي شعر فيه بأن من غير الممكن تحقيق اي شيء عن طريق وزارة الخارجية الأمريكية ، وانه اذا كانت هناك اية نتائج يمكن التوصل اليها فلا بد من ان تكون عن طريق المستشار القوي لشؤون الامن القومي : هنري كيسينجر.

وفي ١٩ يوليو (تموز) جرت في السودان محاولة انقلاب تسببت في مزيد من سوء التفاهم بين الاتحاد السوفييتي ومصر. وقام بالمحاولة ثلا ثة من الجناح اليساري في مجلس قيادة الثورة الاصلي الذي قام بالانقلاب العام ١٩٦٩، وهم الرائد هاشم العطا ، وبابكر النور، وفاروق عثمان حمدالله . وكانت المحاولة تستهدف قلب حكومة الرئيس نميري . وبذلت كل من مصر وليبيا جهودا نشطة تأييدا للرئيس نميري، واجبرت حكومة ليبيا طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية كانت في طريقها الى الخرطوم تحمل بابكر النور وعثمان حمدالله - وكانا في لندن حين قامت محاولة الانقلاب - الى الهبوط في ليبيا، وسلمتهما بعد ذلك الى الرئيس نميري- الذي كان اعتقل في قصر الرئاسة ثم استطاع الفرار يوم ٢٢ يوليو (تموز) وقاد انقلابا مضادا ناجحا- فأعدمهما مع عدد آخر من المتآمرين بعد ذلك بيومين .

وكان من بين من اعتقلوا لاشتراكهم في مؤامرة قلب الرئيس نميري ، شفيع احمد الشيخ رئيس اتحاد نقابات العمال في السودان، وهو رجل كنت شخصيا اقدره كل التقدير، وكنت اعتقد انه لم يقم بدور في المؤامرة . وكنت في يوم ٢٦ يوليو (تموز) أجلس مع الرئيس السادات في الذهبية النيلية " استار" التي ترسو امام استراحة الرئيس في القناطر الخيرية ، حين نقلت الى الرئيس رسالة تلفونية تقول ان بوريس باناماريوف عضو المكتب السياسي السوفييتي والموجود آنذاك في مصر لحضور احتفالات ثورة ٢٣ يوليو (تموز) يطلب مقابلة الرئيس لأمر ذي اهمية قصوى . وتبادر الى ذهننا لأول وهلة انه يريد من الرئيس ان يتوسط لانقاذ حياة الزعيم الشيوعي السوداني عبد الخالق محجوب الذي قيل انه حوكم وصدر ضده حكم بالاعدام . وبعد نصف ساعة من المكالمة التلفونية وصل باناماريوف ومعه السفير السوفييتي فينوجرادوف ، وتركتهما وحدهما مع الرئيس، واستغرق اجتماعه بهما نحو أربعين دقيقة. وسألني الرئيس بعد الاجتماع : " من هو الذي تظن انهما جاءا من أجله ؟ .. انه شفيع وليس محجوب . ويبدو انه حصل على جائزة لينين هذا العام مناصفة مع خالد محيي الدين ... وهما يعتقدان ان أي شيء يحدث له سيكون بمثابة اهانة شديدة للمعسكر الاشتراكي كله " . وقال الرئيس انه لفت نظر باناماريوف وفينوجرادوف الى انه كثيرا ماقال للزعماء السوفييت انه ليس في العالم العربي بلد واحد يمكن ان يقبل النظام الماركسي ، وحذرهم من ان عليهم ان يتوقعوا من الرئيس نميري ان ينتقم لمصرع الكثيرين من انصاره المقربين ، وللاهانة التي تعرض لها هو نفسه .

وقد حاول الرئيس السادات على الفور الاتصال تلفونيا بالرئيس نميري ، وكان الخط التلفوني سيئا للغاية ، لكنه مع ذلك تمكن من ان ينقل الى الرئيس السوداني رجاء باناماريوف بالعفو عن شفيع . وكان رد نميري : " لقد فات الأوان ، فقد تم اعدامه توا " . وعندما سأله الرئيس عما تم بشأن محجوب الذي كان يرى ان خطره اكبر ، فرد نميري بأنه اعدم ايضا . وهكذا لم يجد الرئيس ما يقوله لباناماريوف سوى ان ينقل اليه ما سمع ، فتأثر بطبيعة الحال غاية التأثر ، كما تضايقت موسكو الى ابعد الحدود ، وعلمت فيما بعد ان السوفيت التقطوا المكالمة التلفونية بين الرئيس السادات والرئيس نميري ، وكان ظنهم ان الرئيس السادات لم يبذل ضغطاً كافيا على الرئيس نميري .

الجزء الرابع
عشاء في السفارة السوفييتية

في اليوم التالي ٢٤ يوليو (تموز) دعاني فينوجردوف الى تناول طعام العشاء معه في السفارة السوفييتية . وردا على سؤالي، قال انه لن يكون معنا سوف باناماريوف والمترجم . فقبلت الدعوة. وكنت مهتما بان اجري حوارا مع هذا المسؤول السوفييتي الكبير، لأني كنت اعرف ان القيادة السوفييتية تسيء فهم الكثير مما اقول واكتب ، وانها لمحت للرئيس عبد الناصر انه يفعل خيرا لو فصلني . وحين جاء بودجورني الى مصر في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٧١ قال للرئيس السادات: ((هذا وقت التخلص من هيكل " . وقد اتيحت لي فرصة التحدث في هذا الموضوع مع الرئيس السادات قبل ان اذهب الى العشاء ، وسألته عن الطريقة التي يرى ان اعالج بها الموضوع ، فكان رأيه ان الدخول فيه مباشرة هو الطريقة المثلى ، وقال : " قل لهما حكاية بودجورني " .

وفي اثناء العشاء اظهر باناماريوف انه ليس على دراية كافية بشؤون العالم العربى على رغم انه عضو المكتب السياسي المسؤول عن حركات التحرير. وقد ابدى استغرابه لعدم قيام ثورة ضد الملك حسين في الاردن . وحين حاولت ان اشرح له تاريخ الهاشميين ، وطبيعة الجيش الاردني ، والعقبات التى تعترض حدوث تغيير في الاردن قال : " اذن كيف تفسر حادث أغتيال الملك عبد الله ، والضغط الذي تعرض له طلال ليتنازل عن العرش ؟ " . وقلت له ان الاغتيال شيء مختلف عن الثورة ، وان طلال ابعد من قبل الاسرة الهاشمية نفسها . وبعد ذلك بدأ باناماريوف يتحدث عن الصين التي كان اهتمامه بها أكبر من أي شيء آخر في العالم العربي .

لكن الحديث بعد ذلك جره الى الاحداث الاخيرة في السودان . ورأيت في ذلك مدخلاً الى الحديث في موضوعي ، وقلت له اني اعرف انه طلب الى الرئيس السادات ان يتدخل في موضوع السودان ، فقال : " وكيف عرفت ؟ اني لم اتحدث الى الرئيس الا هذا الصباح ، ولم يكن معنا سوى المترجم " . فقلت ان الرئيس نفسه هو الذي ابلغني بذلك . وبدت عليه الدهشة. وقلت لبناماريوف اني لست بحاجة الى شهادة من احد تثبت وطنيتي او معتقداتي الاشتراكية ، ولا اريد ان ازعم ان الرئيس عبد الناصر حملني المسؤولية الخاصة بدعم العلاقات السوفييتية / المصرية، لكن ما لا افهمه هو السبب في الاستعداد الدائم لدى بعض الزعماء السوفييت لمهاجمتي . وتدخل فينوجرادوف ليقول انه لم يحدث ابدا اني تعرضت للهجوم من جانب أي زعيم سوفييتي ، وان الزعماء السوفييت ، على العكس ، يعرفون مدى التقدير الكبير الذي يحمله الرئيس عبد الناصر لما ساهمت به في الثورة المصرية . فقلت : " لكن بريجنيف طلب ذات يوم الى سامي شرف ان تتخذ اجراءات لابعادي ... او هكذا ما ابلغه سامي شرف " . ورد فينوجرادوف ان ذلك امر لا يمكن ان يكون قد حدث . فقلت : " حسنا.. ان بودجورني ، على اية حال ، تقدم بالطلب نفسه الى الرئيس السادات " . وقاطعني باناماريوف ليقول : " لا تصغ الى الاشاعات . فقلت ان هذه ليست اشاعة ، وان الرئيس نفسه هو الذي ابلغنى القصة، واذن لي بأن اذكرها لكما الليلة على العشاء . وقلت : " أريد ان اطرح الموضوع كله بصراحة " .

وهرب الدم من وجه باناماريوف. وقال فينوجردوف : " اذا كانت هذه المحادثة تمت فلا بد انها تمت خارج نطاق الاجتماعات الرسمية بين الرئيسين لأني حضرت الاجتماعات كلها " . وقال باناماريوف وهو يستعيد السيطرة على نفسه : " لقد كانت المرة الوحيدة التي انتقدتك فيها هي امام شعراوي جمعة. وكنت اطلعت على قصاصة من صحيفة انكليزية هي صحيفة " ذي بيبول " ، فقلت عنك انك ابديت في اثناء اجتماعك مع ادوارد هيث بعض ملاحظات تضمنت هجوما على الاتحاد السوفييتي . وقلت لشعراوي جمعة انه اذا كان ما جاء في النبأ صحيحا ، فان واجب الحكومة المصرية ان تصدر بيانا رسميا تتبرأ فيه من قولك " . فسألته : " و لم تصدق ما تقرأ في صحيفة " ذي بيبول " ؟ ولماذا تصدر الحكومة المصرية بيانا تستنكر فيه شيئا مفروضا اني قلته؟ وللسبب نفسه ايضا ... لماذا أنفي أنا نفسى الأكاذيب التى تنسب الي.. لقد كان رأيي دائما ان أتجاهل مثل هذه الأكاذيب " .

وقال باناماريوف اني اذا كنت اعرف ، كما اقول ، ان لدى بعض الزعماء السوفييت تحفظات بالنسبة الى مواقفي ، فقد كان الواجب يقتضيني ان افعل شيئا في هذا الصدد ، وقلت انه كان من المستحيل علي ان اهاجم الاتحاد السوفييتي امام هيث ، وتلك اسبابي : أولاً – انه ليس من شأن مثل هذا الهجوم الا أن يضعف مركز مصر . ثانيا – ان آرائي بالنسبة الى الاتحاد السوفييتي اوضحتها تمام الوضوح في ما أكتبه في " الاهرام " ، واني لو كنت اريد ان اقول شيئا مختلفا لما قلته سرا ، ولدي دائما الشجاعة لأن ادافع عن معتقداتي ، ثالثا – ان اجتماعي مع هيث حضره احمد حسن الفقي السفير المصري في لندن وسجل فيه محضر ما دار فيه ، وحين ابلغني شعراوي جمعة ان السوفييت راودتهم الشكوك بشأن مادار في ذلك الاجتماع ، اقترحت عليه ان يطلب من السفير صورة من المحضر " .

وبعد ذلك عاد الحديث الذي استغرق أربع ساعات ونصف الى موضوع الصراع الاسرائيلي العربي ، وسألني باناماريوف عن رأيي في محاولة من جانب الاتحاد السوفييتي للقيام ببعض الضغط على اسرائيل ، وقلت اني اعتقد ان مثل هذه المحاولة ستلقى ترحيبا شديدا بشرط الا تتم بواسطة فيكتور لويس (الصحافي السوفييتي الذي كان يقوم ببعثات " شبه رسمية " تلقى جانبا كبيرا من الدعاية ، وقيل انه كان في الايام القليلة الأخيرة في زيارة لاسرائيل) . وعند هذه النقطة بدأ باناماريوف وفينوجرادوف يكلمان بعضهما بعضا باللغة الروسية ، وكان واضحا ان الحديث يدور عن فيكتور لويس ، فقاطعتهما قائلاً " ان في مقدور أي شخص ان يرى ان اسرائيل تحاول ان تزرع بذور عدم الثقة بين بلدينا ، لا عن طريق تقديم مسرحية كبيرة لزيارة فيكتور لويس ، وانما بنشر الاشاعات عن ان جولدا مائير اجتمعت في اثناء زيارتها الاخيرة لفنلندا ببعض اعضاء المكتب السياسي السوفييتي " . وسأل باناماريوف : " ومن هم هؤلاء الذين قيل انها قابلتهم ؟ " فقلت : ان اسمك كان من بين الاسماء التي ذكرتها بعض الصحف . وطبقا لما كنت تقوله منذ برهة فإني أرى ان عليك أن تصدر تكذيبا رسميا " . وضحك فينوجرادوف وقال " هذه ضربة تحت الحزام " .

وقد ابدى باناماريوف اهتماما ملحوظا ببعثة بيرجس وسترنر الى القاهرة ولا سيما بالنسبة الى الحادثة الغريبة التي عرفت في ما بعد باسم " المذكرة الشبح " . وقد نشأت هذه الحادثة ، التي لا تزال بغير تفسير حتى الآن ، عقب زيارة قام بها بيرجس لوزارة الخارجية المصرية في أحد الايام بعد عودة سترنر الى واشنطن ، وقابل خلالها محمد رياض مساعد محمود رياض وزير الخارجية ، وقال له انه يبدو ان مصر فشلت دائما في عرض قضيتها بطريقة يفهمها العالم ، وانه لو كان هو الذي يتولى عرض القضية لتصرف على النحو التالي ، ثم أخذ ورقة كتب عليها بعض رؤوس الموضوعات واخذها معه الى منزله ، حيث سجل فيها بالتفصيل ما يرتقي الى مرتبة مشروع قرار من الحكومة المصرية لتسوية سلمية ، وارسلها في اليوم التالي من دون عنوان أو توقيع ، الى محمود رياض . ولم يخطر في بال أحد أن يكون ما فعله بيرجس مجرد مبادرة شخصية أو تصرف تلقائي ، وفسر بصورة عامة على انه محاولة تريد الحكومة الاميركية ان تقوم بها على ان تبدو كأن مصدرها الجانب المصري.

وكان من رأي باناماريوف ايضا ان " المذكرة الشبح " لابد ان تكون تعبيرا عن الموقف الرسمي الامريكي ، وسألني بالنسبة الى ما اتصور انه الاهداف الحقيقية التي تسعى امريكا الى تحقيقها ، قلت اني اعتقد ، بصراحة ، ان امريكا تريد – اساسا – حلا سلميا لمشكلة الشرق الاوسط ، بشرط ان يكون هذا الحل امريكيا . ويعني هذا ان الحل لابد ان يتضمن ثلاثة شروط : أن يؤدي الى طرد النفوذ السوفييتي من المنطقة كلها ، وان يترك مصر ضعيفة غير قادرة على التأثير بأي نفوذ على الاطلاق في العالم العربي ، وان تظهر التجربة الثورية المصرية في مظهر التجربة الفاشلة . ووافقني باناماريوف على هذا التحليل ، وسألني رأيي في ما يمكن عمله . فقلت ان المهمة الأولى التي تواجه الشعب المصري هي المعركة المقبلة لاستعادة الارض المصرية والعربية المفقودة . ذلك يعني الحاجة القصوى الى بناء القدرة العسكرية المصرية الى حد المساواة على الأقل بالقدرة العسكرية الاسرائيلية .

وقادنا هذا النقاش الى الحديث عن جماعة علي صبري ، وكان من الواضح ان الموضوعين متصلان بعضهما ببعض في ذهنه . قال انه لم يكن بين السوفييت وبين هذه الجماعة اية علاقات ، وان السوفييت لم يعرفوهم الا من البعثات التي كانوا يقومون بها الى الاتحاد السوفييتي بين وقت وآخر بتكليف من الرئيس عبد الناصر أو من الرئيس السادات . وقال : " ان كل ما أطلبه بالنسبة اليهم هو محاكمة عادلة " . ثم راح يقتبس بعض ما نشر عنهم ولا سيما ما تكشف من أن بعضهم لجأوا الى الارواح يستعينون بوسطائها في توجيههم . وقلت له ان ما نشر في هذا الصدد لم يكن يستهدف في أي حال التأثير على محاكمتهم ، وانما قصد به اظهار الحالة التي كانت تسيطر على عقول جماعة كان افرادها يريدون السيطرة على مصير البلد ، ومن حق الشعب المصري أن يعرف ذلك . وقلت : " في اعتقادي ان الشعب المصري نجا مرتين بردود فعل تلقائية من مواقف كان يمكن ان تهوي به ... المرة الأولى كانت يومي ٩ و١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ حين اجبر جمال عبد الناصر على سحب استقالته والعدول عن تنحيه ، والثانية منذ شهرين حين رفض محاولة قامت بها جماعة صغيرة لفرض الديكتاتورية عليه " وكرر باناماريوف انه لايطلب أكثر من ان تمنح جماعة علي صبري كل الضمانات التي كفلها لها القانون . واظن انه رآني ابتسم ، لانه قال : " حسنا .. اني اعترف بأننا نحن انفسنا ارتكبنا اخطاء ضد القانون ، لكن ذلك كان في الثلاثينات ، قبل المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي ، ونريدكم ان تتجنبوا ذلك النوع من الاخطاء التي ارتكبناها " . وبعد ذلك انتقلنا بالحديث الى كوبا .

الجزء الخامس
حكاية راندوبولو

ازدادت علاقات مصر بالولايات المتحدة سوءاً نتيجة للصمت المطبق الذي ساد الجانب الامريكي عقب بعثة سترنر، ونتيجة لـ " المذكرة الشبح " ثم نتيجة لصدام حاد حول ما تمكن تسميته " حكاية راندو بولو" .

على بعد بضعة اميال جنوبي غربي الاسكندرية في منطقة اسمها " جانا كليس " تقوم مزرعة كبيرة مخصصة كلها لزراعة العنب وانتاج النبيذ ، تملكها شركة من اسر رجال الاعمال هي اسرة بيراكوس ، وكان من بين موظفي المزرعة الكبار رجل ينحدر من ابوين كانا هاجرا الى مصر واقاما فيها وحصلا على الجنسية المصرية ، اسمه طناش راندوبولو ، وحين صدرت القرارات الاشتراكية في يوليو (تموز) سنة ١٩٦١ انطبقت قوانين التأميم على المزرعة ، وتقرر ان يبقى راندوبولو فيها كمدير لها ، وكان راندوبولو في نحو الستين من عمره ، على قسط كبير من الجاذبية والمقدرة ، وانتخب مرتين عضوا في مجلس الامة عن الدائرة التي تقع فيها المزرعة ، والتي كانت بالفعل اقطاعية لتلك الشركة ، وكان يقيم معظم الوقت في استراحة جميلة في المزرعة ، مثالا لرجل العلاقات العامة الناجح بما يوزعه على الجهات المختلفة من النبيذ والبراندي والفواكه . الى ان كان العام ١٩٧٠ ، حين اكتسب جارا جديدا على

حدود المزرعة مباشرة ، حيث خصص المطار القائم هناك للطائرات السوفييتية تعمل منه للدفاع عن الاسطول السوفييتي في البحر الابيض المتوسط ، وعن المواقع المصرية في العمق .

وبدأ أول اتصال لي بهذه الحكاية في احد ايام شهر سبتمبر (ايلول) عام ١٩٧١ حين تلقيت وانا في الاسكندرية مكالمة تلفونية ثائرة من دونالد بيرجس ، قال فيها ان منزل احد الرعايا الامريكيين في القاهرة تعرض لهجوم بالمدافع الرشاشة والمسدسات من جانب رجال البوليس ، وان " هذه مسألة غاية في الخطورة " . وحين قلت له ان لاشأن لي بذلك وان عليه ان يتصل بوزارة الخارجية ، تغيرت لهجته فجأة وقال بصوت مهذب : " حاضر يا سيدي " وأقفل السكة .

واتصل بعد ذلك بالتلفون بمحمود رياض وزير الخارجية ، وايقظه من النوم عند منتصف الليل ليقول له ان منزلا امريكيا قدهوجم ، وان احدى رعايا امريكا اعتقلت ، واضاف بلهجة حادة : " اذا كان كل شيء كهذا سيحدث فإني سأنصح جميع الامريكيين في مصر ، بما فيهم اولئك الذين يعملون في آبار البترول ، بأن يغادروا البلاد ... لأن سلامتهم لم تعد مضمونة فيها " . ورد عليه محمود رياض بشيء من الحزم انه لا يعرف شيئا عن الموضوع ، وطلب اليه ان يتصل في الصباح بأحمد عثمان المستشار القانوني للوزارة .

وحقيقة ما حدث كانت كالآتي : استطاعت المخابرات الامريكية ان تصل الى طناش راندبولو وتقنعه بأن يبلغها كل أوجه النشاط السوفييتي في القاعدة الجوية . وكان مرد نجاح المخابرات الامريكية في اقناعه ان له ابناً هاجر الى الولايات المتحدة وكان شديد الاهتمام الى حد اليأس بمساعدته . وقد تم اتصال المخابرات الامريكية به عن طريق فتاة اسمها " مس سوين " كانت تعمل – صوريا – سكرتيرة في قسم التأشيرات في القنصلية الامريكية . وكان رجال المخابرات المصرية بدأوا منذ عدة شهور يشكون في طناش راندبولو وبدأوا يراقبونه ، والتقطوا ثلاث رسائل مكتوبة بالحبر السري تتضمن معلومات عن القاعدة والقوا القبض عليه في منطقة العجمي ، وكان معه يومها امريكي قدم الدليل على حصانته الدبلوماسية فأخلي سبيله .

أما " مس سوين " فكانت اقل حظاً .

كان رؤساؤها قرروا ان الوقت قد حان لاختفائها بعدما قبض على راندبولو ، وكانت توجهت الى منزل صديق لها لتودعه ، وبعد عودتها وبينما هي تتجه نحو منزلها بعدما تركت سيارتها ، تقدم منها اثنان من رجال المخابرات يرتديان الملابس المدنية فحاولت الهروب ، لكنهما تمكنا من القبض عليها واصطحابها الى ادارة المخابرات العامة ، وفتشت " شقتها " ، ولكن – على العكس مما زعم بيرجس – لم تستخدم في عملية التفتيش أو في عملية القبض عليها أي اسلحة من أي نوع . وكان اللواء احمد اسماعيل مدير المخابرات العامة في ذلك الوقت ، حريصا على ان يتم تصوير العملية كلها بآلة سينمائية حتى لا يكون هناك مجال للمناقشة بشأن حقيقة ما حدث .

ومع ذلك فإن بيرجس أصر في اثناء مقابلته لاحمد عثمان صباح اليوم التالي على ان القوة استخدمت ضد " مس سوين " . ونفى احمد عثمان ان يكون ذلك حدث ، وقال له ان تقريرا كاملا عن الموضوع كله ارسل الى الرئيس وتضمن ان كل شيء تم ببساطة وهدوء وأن " مس سوين " رهن الاعتقال ، بينما اعترف طناش راندوبولو اعترافاً كاملا . وارتكب بيرجس في تلك اللحظة غلطة كبيرة حين قال ان اللواء احمد اسماعيل لابد ان يكون قدم الى الرئيس معلومات كاذبة.

وحين سمع اللواء احمد اسماعيل بما حدث، سارع الى استدعاء مندوب المخابرات الامريكية في مصر- وكان معروفاً لديه بطبيعة الحال - وهو يوجين ثرون الذي استخدم صفة العضو في بعثة رعاية

المصالح الامريكية غطاء لصفته الحقيقية . والح ثرون على اللواء احمد اسماعيل في أثناء المقابلة ان ينتهي الموضوع بأقل قدر من الضجة ، وناشده اطلاق سراح الفتاة . وحين عاد الى مكتبه كتب الى اللواء احمد اسماعيل خطاباً غاية فى الصراحة قال فيه : " أريد أن أؤكد لك ان اي معلومات حصلنا عليها من الفتاة لم تذهب الى اسرائيل ، وكانت لفائدة الولايات المتحدة فقط . والحقيقة انها لفائدة مصر أيضاً ، لأنها تمكن الحكومة الامريكية من ان تقول لاسرائيل حين تطلب مزيداً من السلاح بحجة الاسلحة التي يرسلها الاتحاد السوفييتي الى مصر انها تبالغ " . ثم مضى الى القول : " وأريدك ان تعرف ان مصر ليست الهدف من عملية التجسس هذه . وانت تعرف أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي مشتركان في مجابهة عالمية . وهنا قاعدة يعمل السوفييت منها، وطبيعي ان نكون مهتمين بما يفعلون . لقد كنا نتجسس عليهم .. لا عليكم " .

ومن ناحيته، فان اللواء احمد اسماعيل كان مهتماً بألا يفلت الموقف من الزمام ، وصحب ثرون بيرجس لمقابلته ، ووقف امامه ليقدم اعتذا راً كاملاً . وكان بيرجس في وضع محزن ... ان كل ما حاول ان ينجزه في مصر بدا في تلك اللحظة كأنه تحول الى انقاض ، كما أنه هو نفسه كاد ينهار في أثناء المقابلة. اما "مس سوين " فقد برهنت على انها من معدن اصلب . لقد رفضت ان تعترف بأي شيء، وبذل الامريكيون كل أساليب الملاينة والنفاق لاطلاق سراحها، لكن الرئيس رفض، ولم يوافق على خروجها الا بعد ذلك بشهور عدة . وأما طناش راندوبولو فقد كان في حالة انهيار تام منذ اللحظة الأولى لاعتقاله ، ومات بأزمة قلبية .

وكان لهذه القضية آثارها على الجانب السوفييتي أيضاً . ويبدو ان المسؤولين السوفييت عن القاعدة كانوا طلبوا في وقت من الاوقات ان تزرع المناطق المحيطة بالقاعدة بأشجار الفاكهة كاجراء اضافي لاخفائها، ويومها رد طناش راندوبولو أنه لابد ان يلقي نظرة على ما يراد اخفاؤه حتى يستطيع ان يحقق الغرض المطلوب . وأخذه المسؤولون السوفييت في طائرة هليكوبتر حلقت به فوق القاعدة ، وعثر يوم القبض عليه على تقرير شامل لما رأى بين مجموعة الرسائل الأخرى التي كان يكتبها. كذلك، فان طناش راندوبولو كان نجح في توثيق علاقات صداقته بثلاثة من كبار الضباط السوفييت المسؤولين عن موقع قريب لبطاريات الصواريخ ، فكانوا يزورونه في منزله ، ويتلقون منه هدايا النبيذ والفاكهة . وصدرت التعليمات الى اللواء سعد الشاذلي بأن يطلب الى نظيره السوفييتي الجنرال شوارتزكوف مستشار رئيس الاركان أن يسحب ضباط الصواريخ الثلاثة ، وأن يصدر أمراً بمنع جميع الخبراء السوفييت في مصر من الكلام مع أي مصرى في أى موضوع خارج نطاق شؤون التدريب .
وكنت يوم ١٥ سبتمبر (ايلول) اتناول الغداء مع فينوجرادوف حين قال ان هناك مسألة يريد ان يناقشها معي بصفة شخصية وسرية . وقال انه اذا طلبت مصر من ثلاثة من كبار خبراء الطيران السوفييتي ان يتركوا البلاد ، فإن مثل هذا الطلب سيخلف اثراً سيئاً في نفوس بقية الخبراء كما سيؤثر على عملهم. فليس بينهم من يمكن ان يصدق ولو للحظة ان أيا من زملائهم يمكن ان يخون المهمة التي كلف القيام بها . لقد جاؤوا الى مصر متطوعين ، ومستعدين لأن يموتوا في سبيل مصر. ولا شك ان الماريشال جريتشكو والجيش السوفييتي كله سيشعرون باستياء شديد اذا ابعد الخبراء الثلاثة ، ولا سيما في غياب صدور امر باجراء تحقيق رسمي في المسألة . اما في ما يختص بالأمر المقترح اصداره بشأن قصر الكلام بين الخبراء السوفييت والمصريين على شؤون التدريب ، فانه لا بد ان نتذكر أن هؤلاء الخبراء بشر، ومن المشروع ان يصدر حظر بشأن الكلام في المسائل الداخلية المصرية، اما أنا يمنعوا من الكلام الا في ما يختص بشؤون التدريب، فهذا كثير جداً .
ومع ذلك، ففي ذلك الوقت تقريباً أبلغني الرئيس السادات انه سمع ان بعض الخبراء السوفييت يوجهون الى الضباط المصريين الذين يعملون معهم اسئلة في السياسة العليا ، منها مثلا : ما رأيهم في محاكمة جماعة علي صبري؟ وما رأيهم في السادات كرئيس للجمهورية؟ وما رأيهم في الفريق صادق؟ وقال الرئيس ان هذا امر غير محتمل ، لكني عندما ذكرت له ما دار من حديث بين فينوجرادوف وبيني، فانه اتصل بالفريق صادق واصدر اليه تعليمات بوقف الأمر بابعاد الخبراء السوفييت الثلاثة فوراً ، وبأن

يرسل التقرير الخاص بالتحقيق في الموضوع عند اتمامه الى رئيس الخبراء السوفييت ، ويترك لـه امر التصرف بالنسبة الى الاجراء الذي يرى اتخاذه . وكان فينوجرادوف سعيداً جداً عندما ابلغته التغير الذي طرأ على الموقف.

الجزء السادس
آخر اجتماع مع روجرز

كان لحكاية راندوبولو فائدة خاصة... من ناحية انها كشفت عن طريق للاتصال بين مصر والولايات المتحدة اصبح في ما بعد على درجة كبيرة من الأهمية . هذا الطريق كان يبدأ من رئاسة الجمهورية في مصر الى ادارة المخابرات المصرية ، ومنها الى ادارة المخابرات الاميركية ، فالى مجلس الأمن القومي الاميركي وكيسينجر في البيت الابيض . وكان هذا الطريق والابقاء عليه مفتوحا، هو السبب الذي من اجله وافق الرئيس السادات في النهاية على اطلاق سراح " مس سوين " .

وبطبيعة الحال، فقد كان لهذه الوسيلة السرية للاتصال اثرها الفعال في عزل وزارة الخارجية الاميركية. وشهد الاسبوع الاخير من شهر سبتمبر (ايلول) محاولة اخيرة قام بها ويليام روجرز، وزير الخارجية، لاتمام الاتفاق على الاقتراح الاميركي بعقد اتفاقية موقتة ، وكانت هناك في الوقت نفسه محاولة لدق اسفين بين الرئاسة ووزارة الخارجية، لكن المحاولة لم تنجح في تحقيق اي من الغرضين. وكان مسرح المحاولة مأدبة " غداء عمل " حضرها من الجانب الاميركي اضافة الى روجرز، كل من سيسكو، وباترسون ، وماكلوسكي المتحدث باسم وزارة الخارجية، واثرتون ضابط الاتصال بين وزارة الخارجية ومجلس الامن القومي، وسترنر. وحضرها من الجانب المصري محمود رياض والدكتور الزيات، والدكتور اشرف غربال ، والسفير محمد رياض . وكان روجرز هو الذي بدأ الحديث بقوله انه حائر حقيقة في فهم موقف وزارة الخارجية المصرية من الاتفاقية الموقتة، لأنه اقتنع بعد كل الرسائل التي تبادلها مع الرئيس السادات خلال الأشهر الستة الماضية بأن الحكومة المصرية راغبة في الاتفاقية الموقتة " كطريقة عملية للبدء في السير على طريق السلام " . على رغم ذلك ، فأنه دهش لما عرف ان محمود رياض قال في حديث تلفزيوني في اليوم السابق : " انـي لا افهم ما هو المقصود بالاتفاقية الموقتة " .

ورد محمود رياض موضحا انه لا يفهم بالفعل ما تعنيه الولايات المتحدة بالاتفاقية الموقتة . وفي ظنه ان الولايات المتحدة انما تحرف الاقتراح الذي تقدم به الرئيس السادات في شهر فبراير شباط الماضي (بشأن اعادة فتح قناة السويس) . ذلك ان ما كان الرئيس السادات يقترحه آنذاك هو مرحلة اولى في طريق يؤدي الى تسوية سلمية نهائية طبقا للقرار الرقم ٢٤٢ ومن ناحية اخرى ، فان ما يريده الاسرائيليون هو هدنة ممتدة تتيح لهم ان يحتفظوا بصورة دائمة ، بما لا يقل عن ٩٠ في المائة من الاراضى التى احتلوها في العام ١٩٦٧. فاذا كان الاميركيون يرون ان فتح قناة السويس معناه اعطاء الاشارة ليارنج لاعداد جدول زمني لانسحاب كامل للقوات الاسرائيلية ، خلال فترة ٦ اشهر من جميع الاراضي العربية ، فإن مصر موافقة مائة في المائة . ورد روجرز ان الولايات المتحدة ، ببساطة ، لا تعتقد ان في الامكان اعداد خطة نهائية في هذه المرحلة ، وان هذا هو السبب في انها تتحدث عن اتفاقية موقتة . واذا كانت مصر تصر على ان توافق اسرائيل على التزام بالانسحاب التام من جميع الاراضي التي احتلتها ، فانه مضطر الى ان يقول بكل صراحة ان الولايات المتحدة لا تملك وسائل اقناع الاسرائيليين بضرورة الموافقة على ذلك ، أو فرض مثل هذا الالتزام عليهم .

وظلت المناقشة تدور في اطار هذا الخط لفترة . وقد حاول محمود رياض خلا لها ان يحصل على معلومات اكثر تحديدا بالنسبة الى ما هو مفروض ان تشمله الاتفاقية الموقتة . مثلا : ما هو دور الامم المتحدة في الاتفاقية ؟ ومن الذي يوقعها؟ وماهي مدتها ؟ وردا على السؤال الأخير قال روجرز ان

الاتفاقية يجب ان تتضمن بندا ينص على اعادة النظر فيها بعد ثمانية عشر شهرا. فسأل محمود رياض: وهل يعني ذلك انه اذا لم يحقق شيء بعد ثمانية عشر شهرا، فانه يكون من حق مصر ان تعبر القناة وتحرر الاراضي المحتلة بالقوة ؟ ورد روجرز انه اذا لم يحدث ثمة تقدم ، فانه من الواضح انه سيكون لمصر عندئذ الحق نفسه الذي لها الآن : ان تفعل ما ترى انه ضروري لتحقيق امنها .

واستمر الاميركيون في تكرار الفوائد التي يرون انها ستتحقق بالاتفاقية الموقتة. قالوا انها ستضع سابقة لانسحاب اسرائيلي، وستكون تحركا عمليا نحو النهاية التي يسعى اليها الجميع . وقال محمود رياض ان الاسرائيليين سبق ان اجبروا على الانسحاب من سيناء كلها ا لعام ١٩٥٧ ، وبالتالي، فان الاتفاقية الموقتة لا تضع سابقة لانسحابهم ، واكد على خطر السماح لاسرائيل مرة اخرى بأن تحول ما هو مفروض انه اجراء موقت الى اجراء دائم . وفي النهاية قال روجرز انه يشعر باكتئاب شديد من اثر المناقشة، وانه يرى ان ما يقوله محمود رياض معناه انه لا يمكن ان يقبل بتسعين في المائة مما يريد، ويصر على المائة في المائة . وليس في الدنيا مشكلة يمكن ان تحل على هذا الاساس . وردد سيسكو صدى ما يقوله روجرز، فقال انه اذا تمسكت مصر بالحصول على كل شيء او لا شيء ، فان النتيجة ستنتهي الى حصولها على لا شيء .

و قد ظهرت من هذه المناقشة غير المنتجة بضع نقاط تثير الاهتمام ، منها : ان الاميركبين كانوا عند اقتناعهم بان مصر عاجزة عن اتخاذ اي اجراء جدي من جانبها . وقال روجرز في احدى لحظات المناقشة : " اني استطيع ان اتخيلك، يا صديقي العزيز، السيد رياض ، قادما الى الجمعية العامة وانت في الخامسة والسبعين من عمرك تعد الخطاب نفسه الذي اعددته هذا العام ، ويكون الموقف المصري هو موقفها نفسه هذا العام " . ومنها : ان وزارة الخارجية الاميركية تصورت ان هناك اختلافا في وجهات النظر بين الرئاسة ووزارة الخارجية في مصر. واغلب الظن ان هذا التصور يعود الى سوء فهم لبعض ما قاله الرئيس السادات لروجرز حين اجتمع به في القاهرة . وكان ذلك في اثناء اشارة الرئيس الى حديثه يوم ٤ فبراير (شباط) واقتراحه الخاص بفتح قناة السويس . فقد قال لروجرز يومها: "الجميع في ذلك الوقت كانوا ضدي ... حتى محمود رياض " . وكان الرئيس يقصد بذلك محاولة اقناع وزير الخارجية الاميركية بأهمية التنازل الذي يعرضه ، ولكن محتويات الخطاب اصبحت سياسة رسمية يؤيدها كل من في الحكومة باخلاص ، لمجرد ان اعلنها الرئيس في خطابه .

وربما كان تصور روجرز ان هذا الاختلاف في وجهات النظر حقيقي، وان من الممكن استغلاله ، هو السبب في انه بعث بعد ذلك بوقت قصير برسالة مباشرة الى الرئيس السادات استهدف بها تشويه موقف محمود رياض . فقد قال في رسالته ان محمود رياض يقفز الى النتائج بالنسبة الى الاتفاقية الموقتة، ويتهم الولايات المتحدة بانها تريد ان تجعل من الاتفاقية الموقتة غاية في حد ذاتها ، ويبدو انه غير قادر على ان يفهم انها مجرد بداية حقيقية لجهد عملي نحو تسوية نهائية . وقال في الرسالة ايضا ان محمود رياض ضيع الكثير من الوقت في مناقشة الالفاظ ، لكن الاميركيين ماضون في استخدام عبارة " الاتفاقية الموقتة" لأنها عبارة استخدمتها كل الشعوب الأخرى ، ولأ نها عبارة واضحة ومحددة تماما. وهو يرى انها تعني بالضبط ما يدور في ذهن المصريين ايضا هو: اجراءات عملية ذات طبيعة موقتة يمكن ان تؤدي الى مراحل اخرى للتقدم نحو تسوية نهائية . لكن روجرز اظهر استمرارا في سوء فهم الموقف المصري عندما اشار في رسالته الى ان خطاب الرئيس في ٤ فبراير (شباط) تضمن "اقتراحا بشأن اتفاقية موقتة تعتبر من وجهة نظرنا خطوة بناءة " ، في حين ان الرئيس كان ، بطبيعة الحال ، يتحدث عن الخطوة الأولى في برنامج مسبق اعداده لتسوية نهائية يتفق على كل مرحلة من مراحلها خلال فترة محددة . وعلى اية حال ، فقد توقف كل من روجرز و محمود رياض عن القيام بأي دور نشط في المفاوضات الخاصة بتسوية ازمة الشرق الأوسط ، واصبحت هذه المفاوضات تدور بعد ذلك بين كيسينجر وحافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي، او بين كيسينجر والرئيس السادات نفسه .

الجزء السابع
... الى العام ١٩٧٢

كان من المفروض ان تكون ١٩٧١ " سنة الحسم " وكانت وقتها تقترب من نهايتها من دون أي حسم ، ولم اكن مقتنعا تماما بهذا التعبير ... أو انني كنت ارى ان تكون ١٩٧١ سنة اتخاذ القرار لا سنة تنفيذه . فمن الافضل دائما تجنب تحديد تاريخ معين يكون الاقدام على العمل فيه متوقعا ، وكان السوفييت ايضا ضد الفكرة تماما ، وسألوا في مرات عدة عن حقيقة ما تعنيه .

وكانت علاقات مصر بالسوفييت بالنسبة الى الجانب العسكري متوترة بسبب التردد الذي كان لا يزال قائما بشأن ما يجب اقراره من خطط العمليات العديدة المقترح تنفيذها . وقد ادخلت تعديلات كثيرة على الخطة المعدة لاقامة نقطة ارتكاز عبر القناة – تحرير ١ وتحرير ٢ وتحرير ٣ – وبعد ما تم بناء جدار الصواريخ عام ١٩٧٠ كانت هناك الخطة التي أمر بها الرئيس عبد الناصر للتقدم حتى الممرات في سيناء ، والتي سميت " جرانيت ١ " على اسم الصخر الصلب الموجود في اسوان والذي صنعت منه معظم الآثار المصرية . وتصور الفريق محمد احمد صادق حين تولى منصب وزير الحربية ان " جرانيت ١ " لا تحقق التقدم الكافي ، ووضع خطة " جرانيت ٢ " التي تتضمن عبور القناة واحتلال الممرات ثم الاندفاع نحو حدود مصر الدولية . ثم وسع نطاق " جرانيت ٢ " بخطة " جرانيت ٣ " التي تتضمن دخول القوات المصرية قطاع غزة الذي تعتبر مصر ان تحريره مسؤولية لا يمكنها التخلي عنها ، وكان ذلك من الناحية الموضوعية فوق أي قدرة متاحة ، لكن هيئة التخطيط العسكرية المصرية راحت تعمل بصورة متصلة ... تعدل الخطط طبقا للتغييرات في الموقف الداخلي والتطورات في الموقف الدولي . وكانت المشكلة هي ان تنفيذ كل هذه الخطط يتطلب اسلحة ومعدات مختلفة . ولم يحدث ابداً ان ناقش السوفييت خطط العمليات مع السلطات المصرية . فقد كانوا على استعداد للمعاونة في تقديم المعدات ، أما الطريقة التي يمكن فيها تحريرالاراضي المحتلة فمن شأن مصر وحدها . وسواء أكانوا يدركون أو لايدركون ان التغييرات الخاصة بطلبات الاسلحة انما املتها التغييرات التي ادخلت على الخطة ١ فذلك ما لا اعرفه ، لكنهم كانوا ، في بعض الاحيان ، يقولون ان مصر تبدو مهتمة بصفة رئيسية بتكديس الاسلحة في المخازن . وفي كل مرة ذهب الرئيس عبد الناصر أو الرئيس السادات الى موسكو كانت الاجتماعات تبدأ بقراءة من الماريشال جريتشكو لقائمة من قوائم السلاح ، وكان يقول " لقد حصلتم على هذا .. وحصلتم على ذاك " . وكل ذلك في محاولة لاظهار ان مصر حصلت على مقدار ما حصل عليه الاسرائيليون ، لكن تركيز السوفييت كان دائما على الكم لا على النوع .

وكان للعلاقات المصرية – السوفييتية جانبها الانساني في ذلك الوقت ايضا . ففي يوم ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) استدعى الرئيس السادات الى مكتبه الجنرال اوكينييف كبير الخبراء السوفييت ، وكان الرئيس يرتدي بذلة القائد الاعلى للقوات المسلحة المصرية ، وبعدما حيا اوكينييف قال له : " الى من تتحدث الآن يا جنرال ؟ " . وبدت الدهشة على اوكينييف وقال : " سيادة الرئيس ... أنا أتحدث اليك " ، فسأله الرئيس " وانا .. من اكون " . فرد اوكينييف " أنت انور السادات " . فقال الرئيس : " كلا انا ستالين .. ولمعلوماتك فانا ستالين لا كالينين ، لقد استخدمتم كالينين كرئيس للدولة في عرض القوات في الحرب العالمية الثانية ، لكنه لم يكن يعرف شيئا عما يجري في الحرب العالمية الثانية ، وكان ستالين هو القائد المسؤول عن ادارة المعركة وادارة الحرب كلها . والآن ايها الجنرال .. فإني بوصفي ستالين لا كالينين ، اطلب منك ان تجلس وتشرح لي الموقف بالضبط . قل لي تقييمك الحقيقي لموقفنا ، تماما كما لو كان ستالين هو الذي استدعاك وامرك وسألك هذا السؤال .. فهل كنت تعطيه جواباً صريحاً ؟ " وقال اوكينييف : " سأعطيه بالتأكيد " فقال الرئيس : " حسنا ... اذا لم تنفذ هذا الأمر الذي اصدرته اليك فسأعاملك تماما كما كان ستالين سيعاملك " . وضحك اوكينييف وانتقل الحديث بعدها الى مسألة التدريب ، وامدادات السلاح ، وامكانات مصر العسكرية وغيرها .

وفي نهاية العام ١٩٧١ عرضت مصر مشكلة الشرق الاوسط كلها على الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، وبدأت جهدا مكثفاً لتثبيت انظار الرأي العام العالمى عليها. لكن الانظار تحولت كلها فجأة الى الحرب في شبه القارة الهندية ، وكانت تلك الحرب مبررا لمصر في عدم القيام بأي عمل ايجابي بالنسبة الى سنة الحسم .

وكانت ١٩٧٢ سنة صعبة .. بدأت بداية سيئة باضطرابات بين الطلاب الذين مزقهم شعور اليأس بسبب عدم التحرك ، وبسبب التغيير الوزاري . فقد طلب يومها الى الدكتور محمود فوزي ان يستقيل ، وتولى الدكتور عزيز صدقي رئاسة الوزارة خلفا له . وعلى الرغم ان الدكتور عزيز صدقي كان معروفا بكفاءته كرجل اداري وكمهندس برنامج التصنيع الضخم في مصر ، الا أن اسباب التغيير لم تكن مفهومة في البلاد .

وكان الرئيس السادات يحس ايضا بشعور من التمزق بعد الذروة العكسية لسنة الحسم . كان يعرف ان شعبيته الشخصية تأثرت، وكان يشعر بان السبب في ذلك يعود- في جانب منه على الاقل - الى انه يتحمل اللوم الذي كان يجب ان يلقى على عاتق السوفييت . وهكذا ، فانه قرر ان يسافر الى موسكو ليحاول تنقية الجو. لكنه سافر الى اسوان قبل أن يبدأ رحلته الى موسكو للتفتيش على وسائل الدفاع عن السد العالي واستمع في اثناء حديثه مع الضباط الشبان الى شكاوى حقيقية من القاذفة " تي يو ١٦ " البعيدة المدى التي يعملون عليها والمزودة بقذائف بعيدة المدى . وكان تقديرهم انها اذا استخدمت في العمليات ، فلن يقدر لأكثر من عشرين في المئة منها ان تعود من مهمتها الأولى .

وسافر الرئيس السادات الى موسكو يوم ٢فبراير وقضى هناك يومين . وعاد الى القاهرة عن طريق يوجوسلافيا وسوريا وليبيا . وقابلته في القناطر الخيرية بعد عودته مباشرة ، وبدأ كلامه عن محادثاته في موسكو بقوله : " من كان يظن ان الملك فيصل سيكون نقطة التحول ؟ " . والقصة كما رواها انه تلقى قبل بضع ساعات من حلته الى موسكو رسالة من الملك فيصل يعرض فيها ان يهديه عشرين قاذفة مقاتلة من طراز " لايتننج " كانت السعودية قد اشترتها من بريطانيا قبل سنوات عدة . وقال الملك في رسالته : " وآمل ان يكون في هذا ما يقنع بعض الآخرين بالاسراع في معونتهم " . وأراد الرئيس السادات أن يظهر عرفانه بالجميل للملك فيصل فطلب الى الفريق صادق أن يبعث برسالة الى الامير سلطان وزير الدفاع السعودي يبلغه فيها ان الرئيس أمره في حال حدوث أي طارىء في اثناء غيابه في موسكو ان تتلقى قيادة القوات المسلحة المصرية أوامرها من الملك فيصل . وقد ابلغ الامير سلطان محتويات تلك الرسالة ، كبار الضباط السعوديين فكان لها صدى عميق في نفوسهم ، على انه لا بد من الاعتراف بأن نهاية القصة لم تكن على ذلك المقدار من السعادة ، فالطائرات " اللايتننج " العشرون لم تصل ابداً ، وبدلاً من ذلك فإن عدداً من الطيارين المصريين ارسلوا الى السعودية للتدريب عليها . وفي الوقت نفسه ، كان هناك عدد آخر من الطيارين المصريين يتدربون على طائرات حديثة في كل من الكويت وليبيا ، وهكذا ، اصبح جزء كبير من الطيارين المصريين موزعين في انحاء العالم العربي .

ولكن ربما كان لهذه البادرة من الملك فيصل ما ساعد على التأثير على السوفييت ، لانهم وافقوا على تزويد القوات الجوية المصرية بالقاذفة " تي يو ٢٢ " وكانوا في الماضي يرفضون تزويدها بها ، بل ان بريجنيف ، في الحقيقة ، قال للرئيس السادات اكثر من مرة قبل ذلك انه اصيب بالملل وتعب من كثرة المطالبة بالقاذفات المقاتلة ، وانه يرفض مناقشتها بعد الآن ، وحاول هذه المرة ان يحارب معركة تراجع فقال متسائلا : " لماذا تخافون الى هذا الحد من قنابل الطائرات ؟ .. لقد ضربنا بقنابل الطائرات في صورة مستمرة في الحرب العالمية الثانية وكسبنا " . ورد الرئيس السادات : " اني لا اخشى قنابل الطائرات ، لكني اريد ان اكون قادرا على ضرب من يضربونني بها ، ودعني اذكرك بأن هناك الفي هدف حيوي في مصر .. واذا ضربت اسرائيل احد جسورنا الاستراتيجية ، فإن ذلك قد يعني اغراق

٢٥٠ الف فدان " . كذلك فقد وافق السوفييت على ان يزودوا مصر بالدبابة " ت ٦٢ " ، وكان ذلك تقدما كبيرا .

وقال لي الرئيس السادات ان بريجنيف كرر عليه القصص التي سمعها عن ان الناس في القاهرة يوجهون اللوم الى الروس ، لأنهم يحولون بين مصر والدخول في حرب لتحرير الاراضي المحتلة . وقال الرئيس : " لقد قلت لبريجنيف ان هناك، في الحقيقة، كثيرون يرون ذلك ، لاني تلقيت منكم وعدا باشياء كثيرة لم تأت أبداً. لقد وعدتموني في اكتوبر (تشرين الأول) بمعدات لم تصل . ووعدني بودجورني في يناير (كانون الثاني) بالمزيد منها ولم يصل . ثم وعدني باناماريوف بالمزيد ايضا ولم يصل . فلم التأخير؟ ونظر بريجنيف الي وقال : الحقيقة اني انا- وليس غيري- الذي اتخذ القرار". واضاف الرئيس السادات انه قال لبريجنيف، عند ذلك ، في محاولة لتيسير الامور، انه اذا كان القرار منه، فانه يقبله بطبيعة الحال . ثم ضحك وقال لي : " اتعرف.. انهم شرقيون مثلنا ".

وفي خلال تلك الفترة ، لم تكن العلاقات مع ليبيا سهلة، وكان ذلك هو السبب الذي من اجله كان قرار الرئيس ان يتوقف في طرابلس في اثناء عودته من رحلته . لقد كان القذافي يعارض الكثير من خطوط السياسة المصرية . فلم يكن راضيا عن قبول مصر للقرار الرقم ٢٤٢، ولا عن ارتباطها الوثيق بالاتحاد السوفييتي . وكان يبدي الشكوك بالنسبة الى قيمة المعدات الجديدة التي وافق السوفييت على تزويد مصر بها على رغم ان الرئيس السادات شرح لى تفوق القاذفة المقاتلة " تي يو ٢٢" والدبابة "ت ٦٢" وحاول ان يقنعه بالنوايا الطيبة للاتحاد السوفييتي كذلك ، فان القذافي كان دائم النقد للملك فيصل، والقى في الآونة الأخيرة خطابا وصف فيه الملك فيصل بـ " ملك القوى الرجعية في العالم العربي ". ورجاه الرئيس السادات ان يوقف هجومه على الملك فيصل وقال له : " ملك الرجعية هذا اعطانا طائرات اللايتننج " وأضاف الرئيس السادات انه يجب ان لا يظهر تعارض حاد بين القاهرة وطرابلس. وكان رد القذافي اقتراحا بالمضي قدما والبدء في تنفيذ فكرة الوحدة ، وقال : " حسنا.. لماذا لا نلغي نحن الليبيين وزارة خارجيتنا؟ اننا في الوقت الحاضر لدينا مقعدنا الخاص في الأمم المتحدة، ونحن مضطرون بسبب وجهات نظرنا الثورية الى ان نهاجم القرار الرقم ٢٤٢، والرجعية، والاتحاد السوفييتي لأنه يتآمر مع الدولة العظمى الأخرى في سياسة الوفاق ، في حين اننا اذا الغينا وزارة خارجيتنا وتنازلنا عن مقعدنا في الأمم المتحدة ، فاننا نجنبكم ونجنب انفسنا الحرج الذي تتعرض له مصر و ليبيا حين تتحدثان لغة متعارضة. ونستطيع عندئذ ان نناقش خلافاتنا فى السر بدلاً من ان نعرضها في العلن . وانا لا تهمني السيادة الوطنية.. وما يهمني هو الوحدة " . لكن الرئيس السادات لم يكن متحمسا، وكان يرى ان الاقتراع سابق لأوانه .

ومع ذلك ، فقد كان من ننيجة هذا النقاش ان تقرر ايفاد الرائد عبد السلام جلود الى موسكو في بعثة لشراء السلاح نيابة عن ليبيا ومصر ، مع تخويله سلطة عرض دفع الثمن كله نقدا وبالعملة الصعبة ، عسى ان يكون في ذلك ما يؤدي الى الاسراع في ارسال الاسلحة ، وصحب جلود معه الرائد مصطفى الخروبي عضو مجلس الثورة وأحد المعروفين بتمسكهم بالدين ، وحدث في اثناء احدى جلسات المفاوضات ان نظر الخروبي الى ساعته وقال ان موعد صلاة الظهر قد حان ، واستفسر ، وهو يقف ، عن اتجاه مكة ، فلما أشاروا اليه به – بعد بحث – راح يؤدي الصلاة . وتوقفت كل المناقشات ، وبدت الدهشة على من كوسيجين وبودجورني ، لكن الخروبي كان فعل ما أراد ن وتردد صوت واحد من المؤمنين المسلمين يؤدي الصلاة في قلعة الحادية .

وكان من بين الموضوعات الأخرى التي لم تتفق فيها وجهتا نظر الرئيس السادات والرئيس القذا في اقتراح الملك حسين الخاص بالمملكة العربية المتحدة - اتحاد يضم الاردن والضفة الغربية- والذي اعلنه في شهر مارس (آذار) . كان القذافي يغلي بالغضب من الاقتراح ، وحاول الرئيس السادات والرئيس الاسد كلاهما ان يهدئا من ثورته ، وكان رأي الرئيس السادات ان الملك حسين معزول تماما، وانه

يعرف ذلك ، ويحاول الخروج من عزلته . وكان يرى ان المشروع لا بد ان يكون اعد سلفا مع الاميركيين، وان امريكا تحاول- بمساعدة من اسرائيل وبتستر من الملك حسين- ان تعيد رسم حدود دائمة في الشرق الأوسط . وكان جزء من المؤامرة - في تصوره- يشمل مدينة غزة التي ستصبح، بمقتضى المشروع الاردني ممرا للأردن الى البحر، وهكذا تعزل مصر عن فلسطين . (وبطبيعة الحال، فان ديان كان في رفح مشغولا في وضع الاستعدادات لميناء اسرائيل الجديد في ياميت). واقترح الرئيس السادات عقد اجتماع خاص لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتأييد كل من مصر وليبيا لأي قرار يتخذونه خاصا بمشروع الملك حسين .

الجزء الثامن
مزيد من المشاكل مع السوفييت

كان الرئيس السادات في زيارة اخرى من زياراته لليبيا حين ثارت ازمة جديدة بين مصر والاتحاد السوفييتي . فقد اكتشف الفريق صادق أن الخبراء السوفييت الموجودين في مصر اعتادوا ان يحملوا معهم في أثناء عودتهم الى بلادهم ، سواء في مغادرة نهائية او لقضاء اجازة، كميات من الذهب ، وذكرت بعض التقديرات ان الكمية التى أخرجت من مصر في المدة ما بين وصولهم لأول مرة في العام ١٩٧٠ حتى بداية سنة ١٩٧٢ بلغت مئات من الكيلوجرامات . كان ما يأخذونه معهم في البداية قاصراً على المصوغات الصغيرة ، لكنهم في الفترة الأخيرة ازدادوا جرأة وبدأوا يحملون معهم كميات ضخمة من المجوهرات : أساور و " بروشات " لزوجاتهم ، وخواتم وغيرها لأنفسهم ، بل ان بعضهم حملوا سبائك من الذهب ، وأصدر الفريق صادق تعليمات بأن يبدأ رجال الجمارك سؤالهم عما في حوزتهم من ذهب ، وحين بدأ تنفيذ التعليمات لأول مرة اعلن بعضهم عما يحملونه معهم ، بينما اعترض الباقون ورفضوا ان يخضعوا للتفتيش . واستدعي كبير الخبراء والسفير السوفييتي الى المطار ، ةتأخر اقلاع طائرتهم احدى عشرة ساعة ، بذلت خلالها محاولات عدة للاتصال تلفونيا بالفريق صادق ، بل حتى بالاتصال بالرئيس السادات نفسه في ليبيا . وساد الموقف جو شديد من العصبية والتوتر حتى امكن الاتصال بالرئيس السادات ، وكان رأيه انه ليس هناك ما يدعو الى التهويل من الحادث وطلب اعداد تقرير عما حدث ، كما طلب ان يسمح للخبراء السوفييت بالسفر بما يحملون .

وحدث صدام آخرمع السوفييت في الشهر التالي بشأن موضوع آخر. كان جانب من معاهدة العام ١٩٧٠ الذي ينص على أن يتولى السوفييت مسؤولية الدفاع الجوي عن العمق المصري يتضمن سفر عدد من المصريين الى الاتحاد السوفييتي للتدرب على صواريخ " سام ٣ " ، حتى اذا ما اتموا تدريبهم عادوا الى مصر ليحلوا محل الفنيين السوفييت . وكان عدد المصريين الذين اتموا التدريب في ذلك الوقت بلغ ١٨ فوجاً ، ورأى الفريق صادق ان الوقت حان لاجراء التغيير، لكن الدكتور عزيز صدقى كان يرى أن من الخطأ اصدار الأمر للاطقم الثمانية عشر من الخبراء السوفييت بالسفر على الفور لأن في سفرهم بهذه الطريقة ما قد يوحي مظهر عملية اجلاء جماعي، ووافقه الرئيس على رأيه، لكن الفريق صادق عاود الاتصال بالرئيس ، وتم الاتفاق ، كحل وسط ، ان يحل المصريون محل اثني عشر طقماً فقط ، والاحتفاظ بالاطقم الستة الباقية كاحتياط ، وطلب الرئيس الى الفريق صادق ان يكتب خطاباً الى كبير الخبراء السوفييت يبلغه فيه ان عملية التغيير ستتم في موعد محدد . وقال الرئيس انه قد مضى على عودة الضباط المصريين الى مصر ستة أشهر، بعدما تم تدريبهم العملي على القتال، فضلاً عن أن مرتبات الخبراء السوفييت تدفع بالعملة الصعبة.

لكن السوفييت استاؤوا من الاقتراح ، وقال الماريشال جريتشكو- وكان في مصر في ذلك الوقت - ان الاقتراح سيثير شعوراً سيئاً لدى خبراء الصواريخ السوفييت ، وسيعتبرونه دليلاً على أن وجودهم في مصر غير مرغوب فيه . يضاف الى ذلك ان صدوره قبل الموعد المحدد لزيارة نيكسون لموسكو مباشرة ، سيبدو وكأن مصر تقدم الى امريكا نصراً دعائيا على طبق من الفضة .

وكانت هناك مشكلة اخرى متصلة بهذه المشكلة ، وهي خاصة بدفع ثمن الطائرات السوفييتية ، فعندما كان الرئيس السادات في زيارته الاخيرة لموسكو ، وعده السوفييت بأن يزودوا مصر بطائرات " ميج ٢٣ " بعد أن يبدأ انتاجها ، وتعهد الرئيس بأن يدفع ثمن ما يحصل عليه منها بالعملة الصعبة التي كان القذافي يقدمها الى مصر ، وعندما سافر وفد مصري برئاسة الفريق عبد القادر حسن نائب وزير الحربية الى موسكو ، تبين له ان السوفييت ليسوا مستعدين لتزويد مصر بالـ " ميج ٢٣ " ، وعرضوا بدلاً منها طرازاً معدلاً للـ " ميج ٢١ " ، وطلبوا ان يدفع ثمن الطائرات من هذا الطراز بالعملة الصعبة ، لكن الرئيس السادات رفض ، على اساس أن العقد الخاص بها عقد قديم لا يتضمن الدفع بالعملة الصعبة .

وهناك قصة عجيبة متصلة بهذا الطراز المعدل من طائرات " ميج ٢١ " ، ففي يوم ٣٠ يوليو (تموز) ١٩٧٠ ، وبعد وصول الطيارين السوفييت الى مصر بفترة وجيزة مع طائرات " ميج ٢١ " الاصلية ، عبرت بعض الطائرات " الفانتوم " الاسرائيلية المجال الجوي الى مطار عين السخنة . وحلقالطيارون السوفييت من مطار المنيا للتصدي لها ، لكنهم وقعوا في فخ اسرائيلي ، ودمرت لهم اربع طائرات في خلال بضع ثوان ، كما اصيبت طائرة خامسة اصابة بليغة وقفز طيارها منها بالمظلة ، واذكر اني كنت في ذلك اليوم اتحدث الى الرئيس عبد الناصر ، واذكر قوله لي : حدث شيء عجيب اليوم .. لقد اسقط الاسرائيليون خمس طائرات سوفييتية . وانا أشعر ، من ناحية ، بالأسف لسقوطها .. لقد حاربوا معنا واعطوا حياتهم لهدفنا ، لكني من ناحية اخرى ، أجد في ذلك دليلا مهما ، فقد كان الروس دائما يتهمون طيارينا بأنهم عاجزون عن ان يتعلموا من التجربة ، وانهم يرتكبون الخطأ نفسه باستمرار ، وانهم ليسوا على مستوى الطيارين الاسرائيليين . وسيشعر طيارونا ، بطبيعة الحال ، بالقلق لهذا الحادث لأنهم كانوا دائما يرجعون سبب الكثير من الاخطاء التي يقعون فيها الى الطائرات التي يطيرون فيها . أما الآن فإن السلاح الجوي المصري سيجد مبرراته ، لأنه يعرف ان الروس انفسهم حصلوا في نهاية الامر على البرهان ، على ان الـ " ميج " ليست على مستوى " الفانتوم " ، ولم ينشر في مصر شيء عن الخسائر السوفييتية في ذلك الوقت ، كما ان الاسرائيليين كانوا ماكرين بصددها ، صحيح انهم ابلغوا الامريكيين الحادث ، لكنهم لم ينشروا نبأه حتى يتجنبوا احراج السوفييت بطريقة قد تدفعهم الى تصعيد الموقف . اما السوفييت فقد تعلموا الدرس ايضا ، وقدموا الى مصر الطراز المعدل من " الميج ٢١ " .
و على اية حال فان كل هذه المسائل الخاصة بخبراء بطاريات الصواريخ وبدفع ثمن الطائرات كانت موضع كثير من المفاوضات التي اشترك فيها كل من الرئيس السادات وبريجنيف . وقد طلب الرئيس في احدى المرات ا لى مراد غالب- وكان وقتها وزيراً للخارجية - وحافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي ان يعدا مذكرة بالموقف كله بين مصر والاتحاد السوفييتي ، ، وابلغ السفير السوفييتي أن يتوقع تسلم هذه المذكرة ، لكن السفير توجه في المساء لمقابلة الرئيس وسلمه رسالة تقول : " ان الرفيق بريجنيف ممتن للشرح الذي قدمته اليه ، ويرى انه ليس ثمة داع لتحليل مكتوب للخلافات بيننا، ويشعر ان مثل هذا التحليل لن يفيد احداً " .. وهدأت الأزمة موقتاً .

ولكن كانت هناك ملحوظة عجيبة متصلة بالموقف . فقد وصل المارشال جريتشكو الى القاهرة بعد ذلك بفترة قصيرة ، ووصلت الى مصر ايضاً ٤ طائرات للا ستطلاع من طراز " ميج ٢٣" (x ٥٠٠ س) ، ودعي الرئيس السادات ليشهد مناوراتها في مطار غرب القاهرة . واقترح الماريشال جريتشكو ان يصدر بيان الى الصحف يقول ان الطيارين المصريين اتموا تجاربهم على التحليق في طائرات تبلغ سرعتها ثلاثة امثال سرعة الصوت ، وأن الرئيس السادات شاهدهم يقومون بتجاربهم . وقال ان مثل هذا البيان سيعطى الانطباع ان مصر تسلمت " الميج ٢٥ " . وعلى رغم ان ذلك لم يكن صحيحاً فان الرئيس السادات كان مستعداً للموافقة عليه لأنه تصور ان فيه ما يلزم السوفييت بتزويد مصر بها. وهكذا.. فما ان اعرب الرئيس عن موافقته حتى أخرج فينوجرادوف مشروع بيان من جيبه صادر باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي . ولم اكن انا سعيداً بهذا البيان لأني احسست بأنه يضع

السلاح الجوي المصري في موقف محرج ، اذ ان العالم العربي سيستنتج منه أن مصر حصلت بالفعل على هذا الطراز الحديث جداً من الطائرات ، وسيساوره العجب لأنها لم تظهر اشارة الاستفادة به .

وكان الاميرال جورشيكوف قد حضر الى مصر أيضا مع الماريشال جريتشكو، وأثار من جديد فكرة منح الاسطول السوفييتي " تسهيلات " في مرسى مطروح وبرنيس على البحر الأحمر. وكان الجيش والبحرية المصرية يعارضان الفكرة ، لكن الاميرال جورشيكوف بدا مصراً عليها زاعماً انها لا تساعد على تمكين الاسطول السوفييتي من أن يعمل بصورة أفضل وحسب، انما ستتيح لمصر الحصول على معلومات استطلاع أحسن بكثير. وكنت شخصياً امقت الاقتراح ، وقلت للرئيس السادات ان من رأيي انه يربط عصر ارتباطاً عميقاً بالاستراتيجية البحرية للاتحاد السوفيتي . وكانت تلك هي الفترة التي بدأت فيها سلسلة مقالاتي في " الاهرام " بعنوان : حالة " اللا سلم .. واللاحرب " والتي قلت فيها ان الاتحاد السوفييتي قد تكون له مصلحة في استمرار موقف اللاسلم .. واللاحرب .

ولقد كان رأيي دائماً ان للسياسة السوفييتية وجهين : فالاتحاد السوفييتي باعتباره دولة عظمى لا بد أن يفكر ضمن اطار عالمي ، وهذا الاطار يتعارض في بعض الاحيان مع دوره كمعين وحام لدول كمصر تجتاز مرحلة الثورة الوطنية . وأنا احمل اعظم التقدير لما قدمه الاتحاد السوفييتي الى مصر وبرهن فيه على انه أهم صديق تعتمد عليه . وليست هناك دولة اخرى في العالم كان في مقدورها ان تقدم الى مصر ما يمكن ان يقترب مما قدمه اليها الاتحاد السوفييتي خلال السنوات التي كان فيها نظامها الاجتماعي والاقتصادي يجتاز مرحلة التحول . وقد أفادت مصر من هذه العلاقة فائدة كبرى في ميادين عدة : النظام السوفييتي السياسي ، والتجارة ، والتصنيع ، وامدادات السلاح وغيرها ، وكان النظام السياسي المصري اقرب بكثير الى النظام السوفييتي منه الى النظام الامريكي ، لكن الحقيقة تبقى .. وهي ان الاتحاد السوفييتي مهتم أشد الاهتمام بالوفاق وبتطوير استراتيجيته البحرية . وهو لاشك يريد حلا لمشكلة الشرق الاوسط يرضي الاماني العربية ، لكنه شديد الحرص على ان لا يحدث ما يجر الى مواجهة بين القوتين العظميين .

ونحو ذلك الوقت تقريبا اجري اختبار في عقل اليكتروني لتقدير درجة افادة مختلف الدول من حالة اللاسلم واللاحرب القائمة . واعطيت للعقل الاليكتروني كل المعلومات ذات الأهمية ،وكانت النتيجة ٤٢٠ نقطة لاسرائيل ، و٢٨٠ نقطة للولايات المتحدة ، و١١٠ نقط للاتحاد السوفييتي .

الجزء التاسع
الانفصال

يمكن ان يتضح لنا الآن كيف تصاعد الموقف حتى بلغ الذروة في يوم ٦ يوليو (تموز) حين اصدر الرئيس السادات امر سحب الفنيين السوفييت من مصر. وقد أرى من الضروري ان نعود الى الوراء قليلاً قبل ان نصف هذا الحادث بالتفصيل.

كانت سياسة عبد الناصر تجاه الاتحاد السوفييتي بعد هزيمة ١٩٦٧ ، سباسة مركبة . فقد كان يرى ان الدولتين العظميين تتجهان نحو الوفاق ، وكان يشعر بأن حكومة الرليس الأمريكي جونسون غير متعاطفة مع العرب بوجه عام ومعه هو نفسه بوجه خاص ، ومن هنا كان مصمما على ان يشرك الاتحاد السوفييتي الى اعمق حد يقدر عليه في ازمة الشرق الاوسط ، كان يريدهم ان يشعروا بأن هزيمته كانت هزيمة لهم ، وكان يعمل في دفعهم لأن يكونوا السباقين في بذل الجهود الديبلوماسية للتغلب على الاثار المدمرة التي خلفتها الهزيمة. وكان يفضل عندما يكون لدى مصر اي اقتراح تتقدم به، الا يتم تقديمه عن طريق محمود رياض او أي ممثل آخر لها، بل كان يفضل ان يمرره للسوفييت ليقدموه الى يارنج او الى واشنطن . وكان يرى انه اذا كان في الامكان الوصول الى تسوية سلمية

مرضية بمساعدة من السوفييت فخير وبركة، اما اذا لم يمكن الوصول الى مثل هذه التسوية- وهو الارجح- فان الاتحاد السوفييتي سيكون عندئذ مضطرا الى ان يقدم اليه العون المادي الذي يحتاج اليه. وكانت غايته كلها ان يرتفع بنزاع الشرق الاوسط من المستوى المحلي الى المستوى الدولي، لأن اسرائيل اثبتت تفوقها- الموقت- في المستوى المحلي، اما في المستوى الدولي فقد تتاح الفرصة لان تتساوى الكفتان في الميزان .

وكنت في ذلك الوقت اكتب مقالات اقول فيها ان في الشرق الاوسط قوتين محليتين لا تستطيعان صنع السلام ، وقوتين عظميين لا تستطيعان خوض الحرب . وكانت لهذه السياسة بطبيعة الحال اخطار واضحة : فمن الجائز في المناورات بين الدولتين العظميين الا يلتفت احد الى الخطأ والصواب في صراع الشرق الاوسط . وقد يترتب على خطورة ازمة الشرق الاوسط ان تسارع الى تحقيق الوفاق بينهما . وكان عبد الناصر دائما مصمما على ان يستغل الوفاق لمصالح مصر، ولا يسمح للوفاق بان يستغله. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية كان لا بد له من الحركة والمرونة.

وهكذا ابقي باب الاختيار مفتوحا، ولاسيما مع امريكا. وجاءت البادرة الاولى في البرقية التي بعث بها الى نيكسون في العام ١٩٦٨ يهنئه فيها بانتخابه رئيسا. ثم وافق على استقبال ويليام سكرانتون مبعوث نيكسون الشخصي الى الشرق الاوسط ، حتى قبل ان يدخل نيكسون البيت الابيض . وبعدها اوفد الدكتور محمود فوزي مساعد الرئيس للشؤون الخارجية الى واشنطن للاشتراك في تشييع جنازة الرئيس ايزنهاور، مما أتاح له فرصة الحديث مع نيكسون وروجرز وغيرهما . ثم جاءت بعد ذلك موافقة عبد الناصر على مبادرة روجرز، ومحادثاته مع سيسكو، الخ . وكان كذلك مستعدا لان يقيم علاقات افضل مع اوروبا الغربية، وخاصة مع فرنسا وبريطانيا والمانيا الغربية، ومع دول عدم الانحياز.

وفي كل مرحلة في هذه المراحل كان عبد الناصر حريصا على ان يرسم في معاملاته مع السوفييت خطا يبقي على اشتراكهم في الازمة ، لكنه لا يتيح لهم فرصة السيطرة . وهكذا ، فانه عندما شرح له بودجورني الأهمية الكبرى لحصول الاسطول السوفييتي الخامس في البحر الابيض المتوسط على مكان يأخذ فيه حاجته من الماء (بدلا من ان يأخذها من اوديسا) ويستطيع فيه البحارة ان يستمتعوا باجازاتهم على الشاطىء، اظهر عبد الناصر استعداده التام لمنحهم هذه التسهيلات في الاسكندرية وبور سعيد ومرسى مطروح ، لكنهم عندما طلبوا اعداد اماكن لأسر البحارة في مرسى مطروح وبرنيس يتولى حراستها بحارة سوفييت، مع منح اي وحدة من وحدات الاسطول السوفييتي الحق في دخول اي ميناء مصري من دون سابق اشعار، فان عبد الناصر رفض بكل شدة . كذلك كان موقفه بالنسبة الى السلاح الجوي السوفييتي . لقد كان السوفييت يريدون ان يكون لطائراتهم حق الهبوط والتحليق الدائمين، وحق استخدام المطارات المصرية باشعار لا تزيد مدته عن بضع ساعات قليلة. ورفض ذلك ايضا واصر على ان تتم كل حالة من هذه الحالات باشعار تام يقدم قبلها في وقت كاف . وكان حبلاً رفيعا وصعبا، ذاك الذي سار عليه عبد الناصر، لكنه مع ذلك استطاع ان يمشي عليه.

وواصل الرئيس السادات السير على سياسة الرئيس عبد الناصر. فقد وقف موقفا حازما ضد اولئك الذين كانوا- حتى في ذلك الوقت- يقولون ان السوفييت حققوا لأنفسهم مركز سيطرة متقدما جدا في حياة البلاد. بل لعل الرئيس في الحقيقة غالى في بعض نواحي ذلك الاتجاه . وعلى سبيل المثال فان السوفييت كانوا تولوا الاشراف الكامل على مطار غرب القاهرة بعدما تولى السادات رئاسة الجمهورية، حتى انه لم يكن في المطار مسؤول وا حد من الجمارك المصرية. وكانت الطائرات السوفييتية تهبط في المطار وتحلق منه كما يحلو لها. ولم يكن في هذا ما يرضي احدا. بل ان البعض ذهبوا بالوهم الى حد تصور ان يكرر السوفييت، في حالة نشوب اي احتكاك ، الاسلوب الذي اتبعوه في تشيكوسلوفاكيا. فقد كان لديهم خبراؤهم، ومطارهم، وفي استطا عتهم ان ينقلوا الى مصر اي عدد يريدونه من قواتهم. وكانت

هناك قصص كثيرة تروى عن صناديق ضخمة تنزلها الطائرات السوفييتية في مطار غرب القاهرة، ورددت الشائعات انها مملوءة بالاسلحة لجهات غير معلومة، وان كانت مشبوهة. وكان الجزء الاكبر من ذلك حملة نفسية ضد العلاقات المصرية- السوفييتية.

وفي الجانب السوفييتي كانت الشكوك في الرئيس السادات تتزايد . فقد كانت هناك الملاحظات التي سبقت الاشارة اليها حول ما قاله الرئيس لكمال ادهم والتي سربها الامريكيون الى السوفييت. وكان هناك ما ابلغهم به البعض عن مناقشة دارت في اللجنة المركزية للا تحاد الاشتراكي في العام ١٩٧١ وقال فيها الرئيس ردا على أسئلة بشأن الخبراء السوفييت : " اتظنون اني اريد ان ابقيهم؟.. اننا محتاجون اليهم للدفاع عنا في العمق، لكنهم عبء علينا، لاننا مضطرون الى ان ندفع مرتباتهم بالعملة الصعبة". وقد تضايق بريجنيف الى ابعد الحدود حين سمع بذلك، وبعث الى الرئيس السادات برسالة يتساءل فيها عما اذا كان يعتبر الخبراء السوفييت مرتزقة.

وفوق ذلك كله، فقد كان هناك الجدل حول امدادات السلاح التي كانت الغرض الاول من الزيارات الاربع التي قام بها الرئيس السادات لموسكو في المدة منذ ان تولى الرئاسة حتى شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٢. وفي تصوري ان الجانبين كانا على خطأ. فقد كانت طلبات المصريين تتغير بصورة مستمرة، كما كانت في بعض الاحيان مبالغا فيها. ذلك انه كانت لدى مصر- شأنها في ذلك شأن الكثير من الدول النامية- فكرة مبالغ فيها عن القدرة الانتاجية للدول العظمى، وتفترض انه حتى اكثر الاسلحة تعقيدا متوافر لدى تلك الدول بصورة دائمة وجاهز للتسليم تحت الطلب. لكننا، حتى اذا افترضنا ان الانتاج السنوي للاتحاد السوفييتي من الدبابات ضعف انتاج الولايات المتحدة منها (ولنقل ٧٢٠ دبابة مثلا) فقد كان هناك دائما اتجاه لنسيان ان الاتحاد السوفييتي لم يكن يزود بها حلفاؤه في حلف وارسو وحسب، انما كان يزود بها ثماني او تسع دول اخرى في العالم العربي اضافة الى مصر.. ناهيك عما كان يزود به الهند او فيتنام الشمالية. وبالنسبة الى الطائرات، فان الضربة الوقائية الناجحة التي وجهتها اسرائيل في ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ كانت مسيطرة على مصر الى درجة جعلت التفكير كله منصبا على الطريقة التي يمكن بها تحقيق قدر من التفوق يمكنها بدورها من تحييد كل القواعد الجوية الاسرائيلية. وكان مما عقد التخطيط المصري ذلك المزيج من الشعور باليأس والشعور بالامل نتيجة القرار بالغاء مشروع الهجوم، والتخطيط له قائم . لقد كانت مصر نافذة الصبر، واستغرق الامر وقتا طويلاً حتى أصبحت مستعدة لقبول فكرة الهجوم المحدود الذي يستهدف اساسا فتح الطريق للاحتمالات السياسية.
ومن ناحية اخرى، كان السوفييت في بعض الاحيان ابعد ما يكونون عن فهم اسلوب التعامل الذي يستطيع تحقيق نتائج مرضية ومريحة . كانوا يردون بـ " نعم " اوبـ "لا" قاطعة وصريحة على طلبات الاسلحة من دون ابداء اية أسباب . وكان التأخير بالنسبة الى بعض طلبات شحنات الاسلحة في العام ١٩٧١ صعب التفسير ولاسيما للعسكريين . وفي اواخر تلك السنة كانت الهند قد وضعت على رأس قائمة الاولويات بالنسبة الى الامدادات السوفييتية بسبب حربها مع باكستان، وقد سمح بارسال بعض هذه الامدادات المطلوبة على عجل قبل بدء المعارك عبر مصر. وكان من عادة احد القادة العسكريين المصريين ان يردد في ذلك الوقت المثل العربي : " الماء لا يمر على عطشان ". وكان هناك كذلك الخوف لدى الجانب السوفييتي من ان تندفع مصر الى مغامرة عسكرية متهورة في محاولة لتنفيذ شعار "سنة الحسم ". وكانت هناك غمزة اخرى من الجانب السوفييتي لمصر عندما كان الرئيس السادات في زيارة لموسكو في شهر ابريل (نيسان) من العام ١٩٧٢ حين القى عليه الماريشال جريتشكو محاضرة عن المتطلبات الثلاثة الاساسية لخوض حرب ناجحة وهي : اسلحة الحرب ، والتدريب، وارادة القتال. وقال: " ان المطلبين الاول والثاني متوافران لديكم .. اما المطلب الثالث فلكم ان تستشيروا ضميركم بشأنه ". وكان من الطبيعي ان يعتبر الرئيس السادات هذا الكلام غير مقبول .

وكان هناك نقد مغلف آخر من الجانب السوفييتي خاص بالحالة السائدة في مصر. وكان مبعثه مرة ثانية الماريشال جريتشكو، وذلك عندما نقل (وكان في زيارة لمصر في مايو (ا يار) ١٩٧٢) عن احد

الخبراء السوفييت الذين يعملون على احدى قواعد الصواريخ قرب الاسكندرية مقارنته لحالة التقشف المطبقة تماما في قاعدته بالانوار الساطعة وبما كان يراه بين الحين والحين، عندما كان يزور الاسكندرية في اجازة ، من مظاهر الحياة الطبيعية الواضحة التي تعيشها الاسكندربة. وكان جريتشكو يرى ضرورة ان يعيش الشعب المصري بصورة دائمة في جو حالة الحرب، في حين كانت وجهة نظر المسؤولين في مصر ان محاولة فرض جو الحرب على البلاد بصورة دائمة، من دون ان يكون هناك قتال دائر بالفعل، لا بد ان يؤدي الى انفجار. وفي اكثر من مناسبة قال الرئيس السادات للسوفييت : "انتم لا تفهمون طبيعة شعبنا، وتشعرون بالقلق بالنسبة الى تعبئته، لكني استطيع ان اؤكد لكم ان الطلقة الاولى ستعبىء كل فرد من افراد الشعب لمجرد ان تطلق، كما لا يمكن ان يعبئه شيء آخر".

وكان اقتراب موعد الذكرى الخامسة لحرب العام ١٩٦٧ عاملاً آخر من عوامل التوتر المتزايد. ذلك ان الشعور بانه بعد ٥ يونيو (حزيران) ستبدأ سنة جديدة ، من دون البدء في عمل لازالة آثار الهزيمة، بينما العدو يمضي يوميا في تعزيز قبضته على الاراضي التي سرقها من العرب، كان له تأثير عميق على الشعب. وعززت هذا الشعور معرفته بأن نيكسون سيزور موسكو في مايو (ايار) ، ثم ما يستتبع ذلك- والاستعدادات للانتخابات الامريكية تجري على قدم وساق- من حصول اسرائيل كالعادة على ما تشاء من وعود من المرشحين، في حين توضع مشكلة الشرق الاوسط كلها- ديبلوماسيا- في الثلاجة الى حين تولي الحكومة الجديدة مقاليد الحكم .

وفي ١٢ ابريل (نيسان) بعث الرئيس السادات برسالة الى بريجنيف، كان الغرض منها ان يسجل تقييمه للموقف كتابة قبل ان يبدأ زيارته المقررة لموسكو يوم ٢٧. وضمن الرئيس رسالته تحذيرات بشأن ما هو متوقع من الزيارة المقبلة التي سيقوم بها نيكسون لموسكو، وقال : " ان اي سياسة امريكية جديدة ستكون موجهة بالقطع ضد مصالحنا ". اتهم السوفييت بانهم لم يكونوا على قدر من النشاط في تأييد اصدقائهم، كما كانت امريكا في تأييدها لاسرائيل، كما اثار لاول مرة مسألة تدفق المهاجرين من اليهود السوفييت الى اسرائيل ، وقال : " ان بعض هؤلاء هم من الشباب، ومن المثقفين والعلماء الذين سيكونون اداة عون مادي كبير لاسرائيل ". وذكر بريجنيف في ختام رسالته، بان مصر ستحتفل بعد سبعة اسابيع بالذكرى العشرين للثورة المصرية وان " الفترة الخطرة المقبلة لن تضعف من تصميمنا على استعادة حقوقنا ورفضنا التفاوض مع اسرائيل ".

وعندما كان جريتشكو في زيارة للقاهرة في اوائل مايو (ايار) اتفق على ان يقوم الفريق محمد احمد صادق وزير الحربية بزيارة لموسكو. وكان السوفييت مهتمين باستقباله بوجه خاص، لانهم كانوا يشعرون بانه مسؤول الى حد كبير عن الخط المعادي للسوفييت (هكذا كانوا يرونه) الذي اتخذته القوات المسلحة بالنسبة الى موضوع تهريب الذهب، ورفض منح السوفييت قواعد في مرسى مطروح وبرنيس. وكانوا يعتقدون انه يكتسب شعبيته في القوات المسلحة بالسمعة التي عرفت عنه بالنسبة الى وقوفه في وجههم . وهكذا، فانه عندما وصل الى موسكو اعد له نوع الاستقبال الذي يستقبل به رؤساء الدول لا وزراء الحربية. وكان الرئيس السادات حمله رسالة تعريف به لبريجنيف (موقعة بتاريخ ٧) ضمنها شكر بريجنيف لدفاعه عن موقف مصر في محادثاته الاخيرة مع الرئيس نيكسون . وقال في الرسالة ايضا : " لكننا لاحظنا ان هناك بيانات علنية صدرت عن بعض كبار الامريكيين بعد تلك المحادثات تضمنت وجهات نظر تتعارض مع المباديء التي ذكرها البلاغ المشترك الذي صدر عقب محادثات موسكو". وكرر الرئيس ايمانه بانه " لايمكن الوصول الى حل سياسي الا اذا استمر الضغط على الولايات المتحدة واسرائيل، والا اذا اجبرت اسرائيل على ان تفهم ان ميزان القوى العسكرية ليس في صالحها". كذلك فقد أكد الرئيس في رسالته مرة اخرى الحاجة الى التنفيذ العاجل للبرامج المتفق عليها بشأن امدادات السلاح والتدريب .

وعندما عاد الفريق صادق من موسكو قدم الى الرئيس يوم ١٥ يونيو (حزيران) تقريرا عن محادثاته هناك. ولن يعرف احد على وجه الاطلاق حقيقة ما دار في ذهن الرئيس في الفترة منذ ذلك اليوم الى يوم ٦ يوليو (تموز) عندما اصدر قرار سحب الخبراء السوفييت ، الا اذا قرر هو نفسه ان يزيح عنه الستار. وكان يتحدث الي بعد بضعة ايام من اصدار القرار، عندما قال انه لم يكن سعيدا طوال الشهر الماضي، وان ثمة شيئاً كان يختمر في ذهنه، لكنه لم يكن يعرف كنهه على وجه اليقين . ولقد درست كل الوثائق المتصلة بالموضوع وتحدثت مع معظم الاشخاص المتصلين به اتصالا وثيقا، لكني مع ذلك وجدت نفسي، ازال عاجزا عن معرفة السبب بالضبط الذي ضغط على الزناد فاطلق قرار الرئيس .

وكان الدكتور محمود فوزي اول من عرف بالقرار، وذلك يوم الخميس ٦ يوليو (تموز) . فقد زاره الرئيس في مزرعته في البدرشين في ذلك اليوم ليقدم اليه العزاء (وكان نائبا للرئيس) في وفاة احد اقربائه، وقال له بطريقة عابرة تقريبا انه يفكر في ان يطلب الى الاتحاد السوفييتي سحب خبرائه العسكريين من مصر لانهم اصبحوا عبئا عليها، وقال : " وبعد ذلك نستطيع ان نبدأ معهم مفاوضات طازجة بموجب شروط معاهدتنا معهم " .

وكان الرجل الثاني الذي ابلغ بالقرار هو الفريق صادق، وذلك في يوم الجمعة ٧ يوليو (تموز) . كان الفريق صادق في منزله يستعد للخروج لتأدية صلاة الجمعة، وبعدها لموعد لتناول طعام الغداء مع الامير سلطان وزير الدفاع السعودي الذي توقف في القاهرة في اثناء عودته من رحلة الى واشنطن حاملاً معه احدث تقييم للموقف هناك . ورن جرس التلفون وسمع الفريق صوت الرئيس على الخط يقول : " تعال صل معي .. انا في القناطر ". واتصل الفريق صادق بالامير سلطان معتذرا عن موعده معه، وتوجه الى القناطر. وفي اثناء عودتهما من المسجد قال له الرئيس : "سأقول لك شيئا يجعل وجهك كله يبتسم.. لقد قررت ان اطلب الى الروس ان يخرجوا ". وتولت الفريق صادق دهشة لها ما يبررها ، وحاول ان يناقش الموضوع لكنه تبين ان الرئيس كان متصلبا .

وكان الشخص الثالث الذي ابلغ القرار هو السفير السوفييتي فلاديمير فينوجرادوف. وكان الرئيس طلب منه قبل بضعة ايام ان يقدم اليه تقريرا اوفى عن حقيقة ما دار في محادثات القمة في موسكو مع الرئيس نيكسون. ومساء يوم السبت ٨ يوليو (تموز) توجه فينوجرادوف الى مقر الرئاسة ليسلم رسالة من بريجنيف. ولم يحضر مقابلته مع الرئيس سوى حافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي. وطبقا لما رواه الرئيس، فان حافظ اسماعيل فتح فمه دهشة عندما سمع القرار، وظل فمه مفتوحاً طوال المقابلة. وكان من بين ما تضمنته رسالة بريجنيف ان السوفييت بذلوا ما في وسعهم لعرض وجهة النظر المصرية على الرئيس نيكسون، لكن القلق يساورهم بسبب ما يتلقونه من تقارير عن الاكاذيب التي تنشر ضد الاتحاد السوفييتي من جانب "عناصر معينة في مصر". وقالت الرسالة انه في حين ان الاتحاد السوفييتي سيواصل تأييده العسكري لمصر، فان من المهم ان ترتفع الروح- المعنوية السياسية للقوات المسلحة "لشحنها بالشجاعة والتصميم واليقظة، وتوجيهها في الصراع ضد الامبريالية والصهيونية". وكانت النقطة الاخيرة في رسالة بريجنيف اعرابه عن سروره بالاجراءات التي اتخذت " لعزل القوى الرجعية واليمينية في مصر". وربما كانت هذه اشارة غير مباشرة " للاهرام ". ففي الوقت الذي كنت انشر فيه مقالاتي عن " اللاسلم واللا حرب " واهاجم فيها رضوخنا التام لهذه الحالة، وأكشف النقاب عن المستفيدين منها (وكان الاتحاد السوفييتي في تحليلي، من بين هؤلاء المستفيدين، ولو عن غير قصد) . فاننا عقدنا ندوة في "الاهرام " لمناقشة هذا الموضوع ، وكان من بين من اشتركوا فيها اسماعيل فهمي وكيل وزارة الخارجية في ذلك الوقت ، وقد فصل من منصبه بسبب بعض الافكار التى عرضها فى تلك المناقشة.

وما ان انتهت تلاوة الرسالة حتى بدأ الرئيس يرد عليها. قال لفينوجرادوف انه يجد نفسه مرة اخرى مضطرا الى الشكوى من عدم ارسال الاسلحة. فقد سبق الاتفاق على جدول زمني للامدادات مع

الماريشال جريتشكو، لكنـه لـم ينفذ . " ويبـدو ان الاتحـاد السوفييتي لا يثـق فـي القيـادة المـصرية، ولا يستطيع ان يقدر اخطار الموقف . وفي حين ان مصر حريصة على الاحتفاظ بصداقة الاتحـاد السوفييتى فانها لا تستطيع ان تخضع لوصاية احد عليها، بما في ذلك الاتحاد السوفييتي ".

ثم قال لفينوجرا دوف : " لذلك، فانني ا تخذت القرارات التا لية : ١- انني اشكر الاتحاد السوفييتي علـى كل ما قدم من عون الى مصر عن طريق خبرائه، لكنني اريد الان وقف خدمات هؤلاء الخبـراء اعتبـاراً من يوم ١٧ يوليو (تموز) ٢٠- ان الاسلحة السوفييتية الموجودة في مصر يجب اما ان تباع لمصر وامـا ان يتدرب المصريون على استخدامها واما ان تسحب . ٣ - ان اي قوات سوفييتية تبقى في مصر يجـب ان توضـع تحـت القيـادة المـصرية او تـسحب . ٤- انـه بموجـب نـصوص معاهـدة الـصداقة الـسوفييتية- المصرية، يجب ان تبدأ بيننـا علـى الفور مشاورات علـى مستوى عـال . ٥- ان الفنيين الموجـودين فـي مصر لاغراض التدريب والذين جاؤوا قبل وصـول المجموعـة الرئيسية من الخبـراء، يمكن ان يبقـوا". وطبقا لمحضر المقابلة الذي سجله حافظ اسماعيل ، فان رد فينـوجرادوف علـى هذه الرسـالة شمل اربـع نقـاط . قـال : ١- ان رسـالة بريجنيـف الـى الـرئيس يجـب ان تعتبـر رسـالة موقتـة فقـط . ٢- ان الاتحـاد السوفييتي يثق ثقة كاملة في القيادة المصرية . ٣- انـه يعتـرف بانـه كانـت هنـاك مشاكل متصلة بارسـال الاسلحة، لكنها نشأت عن مصاعب في النقل . ٤- ان القرارات التـي ابلغـه اياهـا الـرئيس الان يفهـم منهـا ان مصر صدقت المزاعم التي نشرها الامريكيون عن ان الاتحاد السوفييتي غير سياسته تجاه مصر.

وبعد ستة ايام سافر الدكتور عزيز صدقي الى موسكو موفدا في محاولة للتخفيف مـن اثـر الـصدمة علـى السوفييت، ولمحاولة اقناع المسؤولين هناك بان تتم عملية سحب الخبـراء باتفـاق مشترك . وقـال لـي انـه شعر بالحرج للاشاعات التي تتردد بأن الغرض من رحلته هو اعداد الترتيبات لعودة الخبراء العسكريين ، بينما الحقيقة ان الرحلة تستهدف غرضين : احدهما تخفيف الجراح لدى السوفييت ، والثـاني محاولـة اتخـاذ الترتيبـات الـلا زمـة لـشراء بعـض المعدات التـي تركهـا الـسوفييت فـي مـصر ، ولاسـيما طـائرات الاستطلاع الاربع من طراز (x ٥٠٠ س) ووحدات صواريخ الدفاع عن السد العالي. وقال انـه اقتـرح على بريجنيف - كوسيلة لتخفيف الجراح - ان يصدر بلاغ مشترك يتضمن ان المهمة التي عهد بهـا الـى الخبـراء السوفييت في مصر قد تمت . وقال ان في مثل هذه الاشارة رداً علـى مـا نـشرتـه صـحف الغـرب من ان الخبراء قد طردوا . لكن بريجنيف رفض . وكتب مذكرة قال فيها: "انكم انتم الذين طلبتم الخبـراء ، فاذا كنتم تريدونـهم ان يرحلوا فذلك قراركم ، ونحن نـستجيب لـه ، لكننـا لـن نكـون ابـدا طرفـا فـي قصة يقصد بها التغطية، ولن نتحمل المسؤولية أمام التاريخ، بان نقول انهم يسحبون بناء على طلبنـا " . كذلك فان بريجنيف رفض ان يبيعنا ايا من المعدات التي طلبنا شراءها. وقد سلم كوسيجين الـى عزيـز صـدقي المذكرة التي كتبها بريجنيف ، كما كتب هو نفسه رسالة يؤكد فيها رفض بيع تلك المعدات . وكـان رأي الرئيس ان " السوفييت مجانين اذ يرفضون اقتراحنا باصدار البلاغ " .

ولم اقابل الرئيس انا نفسي الا يوم الثلاثاء ١١يوليو (تمـوز) ، وكانـت الاوامـر بـسحب الخبـراء لا تـزال سرا مكتوما. وكنت في الاسكندرية في ذلك الوقت ، وقد اتصل الرئيس بي ليطلب ان اتنـاول معـه طعـام العشاء في القناطر يوم الاحد . لكن الرئيس السوري حـافظ الأسد مر يومهـا بالقـاهرة فـي طريـق عودتـه الى بلاده من موسكو واخذ موعدي . ولـم يتيسر ترتيـب موعد آخر ليوم الاثنين . وعندما التقينـا بـدأت كلامي بالاعراب عن خشيتي من ان اسبب لـه الكثير مـن الحـرج بسبب مقـالاتي عن " الـلا سلم و الـلا حرب " وكـان رده : " يبدو انك لا تعـرف مـا يحدث . لقد قطعنـا مـع الـسوفييت " . وشـعرت بالـذهول. صحيح اني ربما كنت اشعر بان مثل هذا القرار ممكن ، لكن توقيته هو المثير للدهشة .

و يمكن، الى حد ما، تقديم شرح اوفى لما ادى الى هذا القرار في ما قاله الرئيس نفسه في اجتماع خاص لمجموعة صغيرة من الصحافيين المصريين كنت من بين من حضروه . قال الـرئيس فـي ذلك الاجتمـاع انه كان في شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧١ قد اتخذ قـرارا انـه لا بـد- ممـا سماه- من "وقفة" فـي

علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي ، وان ننتظر الى ما بعد الزيارة التي كان من المقرر ان يقوم بها الرئيس نيكسون الى موسكو في مايو (ايار) . وقال : " لكننا بعد ذلك لا بد من ان نتخذ موقفا حازما، والا فان الموقف سيستمر على ما هو عليه الآن لمدة عشرين سنة ". وعرض الرئيس بعد ذلك كل خطوات تعامله مع السوفييت منذ ان تولى الرئاسة ، وشرح كيف ان بذور الشك قد ظهرت في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٧١ حين ذهب " المتامرون "- جما عة علي صبري- الى السفير السوفييتي وقالوا له ان انور السادات امريكي ، وسيطردكم في اية لحظة ، وتحدث عن اول لقاء له مع الزعماء السوفييت في شهر فبراير (شباط) من العام ١٩٧١، " وقد احسست يومئذ بانهم مراوغون .. يريدون كسب الوقت " ، وعن محادثاته مع روجرز، قال : " ان الاتحاد السوفييتي يحيرني : انهم يطلبون مني ان اجد حلاً سلميا.. ويأتي روجرز وتدور بيننا محادثات حول حل سلمي .. فيقولون ان السادات باع بلده " الخ... لكن الخط الرئيسي في تحليل الرئيس تركز على المراوغة والتأخير في ارسال الاسلحة اللذين تعرض لهما بصورة مستمرة ، كما تضمن شرحا للكثير من التفصيلات عن التواريخ والارقام ، ووصفا بيانيا للأحداث التي ادت الى المواجهة . وقال انه شرح للسوفييت قبل زيارة نيكسون لموسكو الاهمية التي يعلقها على الفترة ما بين تلك الزيارة وانتخابات الرئاسة في نوفمبر (تشرين الثاني) .. " انها خمسة أشهر.. يجب الا نضيع ايا منها " . وذكر انه قال للماريشال جريتشكو : " انتم تريدون ان يعاد انتخاب نيكسون، وانا مثلكم اريد ذلك ، لان فوز ديموقراطي بالرئاسة سيكون اسوأ بالنسبة الي كما هو اسوأ بالنسبة اليكم . انه اهون الشرين . لكن الامر المهم هو ان تكون لدي قوة تساندني بعد انتهاء الانتخابات. لانني ما لم اظهر اني املك قوة تساندني فان الموقف لن يتغير ابدا " . وقال جريتشكو انه سيبلغ الرسالة. ثم تم اجتماع نيكسون وبريجنيف ، ولم تأت كلمة عما حدث فيه. كنت اجلس هنا في مصر اعد الساعات، وأعد الايام لما لها من اهمية لدينا . وبعد خمسة عشر يوما وصل التقرير السوفييتي عن الاجتماع ، وكان في صفحتين اثنتين : الاولى مليئة بالكلمات والعبارات الغامضة.. " ربما... اذا... "، والثانية تقول انه لم يكن هناك تغير في موقف الامبرياليين والصهيونيين، لكن المسؤولين السوفييت تمكنوا من اقناع الامريكيين بان يتضمن البلاغ اشارة الى القرار الرقم ٢٤٢ " .

وقال الرئيس السادات انه بعث برد على هذه الرسالة وراح ينتظر رسالة اخرى من موسكو. ومر اسبوع واسبوعان وثلاثة اسابيع . " وكنت اعرف منذ ايام عملي مع الرئيس عبد الناصر ان كل المراسلات مع الزعماء السوفييت تتوقف ابتداء من آخر يوليو (تموز) لانهم كلهم يقومون بالاجازة طوال شهر اغسطس (آب) . ولكني مع ذلك .. تلقيت في يوم الخميس ٦ يوليو (تموز) طلبا من السفير السوفييتي بمقابلتي ".

وعندئذ قدم الينا تصوره عن اللقاء المصيري، وكنت متوترا الى درجة لم أشأ فيها مقابلة السفير. وقلت : " فليأت ليقابلني يوم السبت ". وذهبت الى القناطر. وكان في مقدوري ان اخمن ما ستتضمنه محتويات الرسالة، ووضعت خطة الموقف الذي سأتخذه لاضعهم في مكانهم . لقد احسست انهم بحاجة الى صدمة كهربائية . لقد قضينا- عبد الناصر اولا ثم انا- اربع سنوات تحملنا منهم خلالها ما تحملنا. وكان من الواضح بالنسبة الي ان الدولتين العظميين اتفقتا في موسكو على الا تكون هناك حرب في منطقة الشرق الاوسط ، وعلى الا يكون امامنا شيء اخر غير الاستسلام . لكني قلت لنفسي : ومع ذلك .. لربما كان هناك شيء في رسالة السفير. لعل فيها ما يعرضه، وان كنت في الحقيقة اشك في ذلك . وعلى اية حال.. فليأت السفير لمقابلتي في الثامنة مساء . وكانت الرسالة في صفحتين ونصف صفحة، ومرفقة بترجمة عربية. وكنت اجلس على اريكة اصغي الى قراءتها، واسند رأسي على عصاي . وكانت الصفحة الاولى تشرح كيف استطاع الاتحاد السوفييتي ان يقنع نيكسون بأن يتضمن البلاغ المشترك جملة عن القرار الرقم ٢٤٢ وعن مهمة يارنج . وقلت لنفسي : لعلي مجنون، ولكن نيكسون بالقطع لم يكن بحاجة الى اي اقتناع في هذا الشأن . فالامريكيون، قبل كل شيء، قد اشتركوا في وضع صيغة القرار، واذكر ان جولدبرج قال ان امريكا ستضع كل وزنها وراء القرار. وكان من سوء حظ السوفييت ان الامريكيين كانوا بعثوا الي قبل يوم من مقابلتي للسفير برسالة تقول : " تستطيع الان ان تهدأ، وان

تفعل ما تشاء، ولكن عليك ان تذكر دائماً ان مفتاح الحل هنا ". وكانت الصفحة الثانية في الرسالة عبارة عن شكوى مما كان يكتبه هيكل عن حالة " اللا سلم واللا حرب "، بينما كانت الصفحة الثالثة تسير على نمط الشكوى نفسه من "المخربين امثال هيكل" . وكنت جالسا اصغي الى الرسالة من دون ان انظر ناحية السفير. وفي السطور العشرة الاخيرة كانوا وصلوا الى موضوع المعركة، وقالوا : " اننا تعودنا المعا رك.. والحروب تحتاج الى اعداد كثير يتضمن الناحية السيكولوجية وبناء الروح المعنوية". وهم قد قتلوا عبد الناصر بهذا النوع من الكلام . فلمجرد ان نصل الى موضوع يحسون بالحرج نحوه ، فانهم سرعان ما يبدأون الكلام عن الروح المعنوية. وشرحت للسفير كل ما حدث منذ اجتماعاتي الاولى مع القيادة السوفييتية في فبراير (شباط) ١٩٧١. وقلت : " ان بريجنيف كذب علي في مارس (آذار) ١٩٧١، وبودجورني كذب علي في مايو (ايار) ١٩٧١، وعاد بريجنيف فكذب علي في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧١. اتظن اني لا اعرف اللعبة التي تلعبونها؟ لقد اتفقتم مع الامريكيين على الا تكون هناك حرب . ودعني اقل لك انكم لستم اوصياء علينا ". وقلت للسفير ايضا : " ان هذا الكلام كله ليس موجها اليك ، انما هو موجه الى القيادة السوفييتية، ثم نظرت الى ساعتي وسألت حافظ اسماعيل : " ماهو التاريخ اليوم؟ اني لا استطيع ان ارى من دون نظارتي ". فرد : "الثامن من الشهر". فقلت : "حسنا اذن .. سأمنحكم فرصة عشرة ايام .. الى اليوم السابع عشر.. وبعد ذلك تنتهي اللعبة القديمة في التعامل بين مصر والاتحاد السوفييتي " .

واعتقد ان السوفييت صدموا بقرار الرئيس، لكنهم لم يندهشوا له. ولقد احسوا بانزعاج شديد والم عميق، لكنهم كانوا اعدوا انفسهم لشيء من هذا النوع . وكان رد فعلهم متحفظا. وبطبيعة الحال، فان فينوجرادوف سارع الى الاتصال بموسكو بعد المقابلة مباشرة ، واجتمع بالجنرال اوكينييف الذي اتصل بالماريشال جريتشكو. وفي فجر يوم الاثنين كان تلقى تعليمات ان ينفذ المطالب المصرية . وفي ذلك اليوم نفسه قابل اوكينييف الفريق صادق ، واستطاع خلال بضع سا عات ان يقدم اليه خطة لاجلاء الخبراء الذين كان عددهم ارتفع في ذلك الوقت الى ٢١ الف رجل . وكانت الخطة تتضمن نقلهم الى بلادهم في الطائرات ، وكان اوكينييف في كل يوم يقدم الى وزير الحربية المصرية برنامج الجلاء المقرر لذلك اليوم . واقترح في فترة من الفترات ان يخصص مكتب في وزارة الحربية المصرية لكبير الخبراء السوفييت ومعه هيئة من نحو ثمانين شخصا للأشراف على شؤون التعاون والتدريب ، لكن الفريق صادق اقترح على الرئيس عدم الموافقة على الاقتراح لانه احس بانه يحمل معنى الاحتفاظ ببعثة عسكرية في ثوب مختلف . وعليه فقد رفض الرئيس الطلب واذعن السوفييت للرفض . ولعلهم كانوا اقل اصرارا عليه لانه لم يصدر معه قرار بالغاء التسهيلات الممنوحة لاسطولهم في الموانىء المصرية او بالغاء معاهدة الصداقة المصرية- السوفييتية كما كانوا يخشون .

وفي بداية اغسطس (آب) كان السوفييت أفاقوا من اول أثر للصدمة، وبعث بريجنيف برسالة الى الرئيس السادات وصلت اليه في ليبيا. وكان البعض- ولا سيما الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء- يرون ان في الرسالة بعض النقاط البناءة ، لكن احدى فقراتها لم تعجب الرئيس أبدا . فقد جاء فيها قول بريجنيف : " اننا لا نستطيع ان نقف موقف اللامبالاة من الاتجاه الذي تسير فيه جمهورية مصر العربية، لان ذلك امر يخص المصالح المشتركة للسوفييت والشعوب العربية معاً . ولعلكم تذكرون، يا سيادة الرئيس، ان القيادة في كل من بلدينا قد اتفقت على ضرورة الحاجة الى تقوية زحفكم الى الامام وتدعيمه، وزحف كل القوى التقدمية في الشرق الاوسط . ونشعر بأن من حقنا ان نذكركم بهذا لانكم انتم انفسكم قد تحدثتم الينا مرات عدة عن النشاطات المتزايدة للقوى الرجعية داخل مصر، وعن الجهود التي تبذلها العناصر اليمينية بصورة مباشرة او غير مباشرة، بالتحالف مع الاستعمار، لوقف زحف مصر على الطريق التقدمي والعودة به الى الوراء . فالى اين تتجه مصر؟.. الى أين تساق بأيدي قوى من داخلها وخارج حدودها؟ وما الذي ستكون عليه العلاقات بيننا في المستقبل؟ هذه هي الاسئلة التي تثير القلق لدى اصدقائكم وتقدم التشجيع لاعدائكم . اننا نتطلع الى تلقي جواب عن هذه الاسئلة، ونأمل ان تكون الاجابة عنها بكل صراحة " .

ورأى الرئيس في ما تضمنته هذه الفقرة اهانة ومعنى من معاني التدخل في شؤون مصر الداخلية، ووضع هو نفسه صيغة رد شديد اللهجة . كذلك فانه طلب نشر نبأ في "الاهرام " يقول : "علمنا من مصادر عليمة ان رسالة بريجنيف لا تتضمن شيئاً مهما، ولا ينتظر ان تسفر عن اي اتصالات جديدة بين مصر والاتحاد السوفييتي في المستقبل القريب ". وعاد بعد مناقشة للأمر فوافق على عدم نشره، لكنه افهمني انه يريد التخفيف من اهمية الرسالة وقال : " انها لا تستأهل الا ان يمسح بها البلاط ". وكان هناك نبأ اخر نشر بناء على طلبه يقول ان " السفير المصري في موسكو استدعي الى بلاده في اجازة " .

والان.. لم كان الوجود العسكري السوفييتي غير مرغوب فيه الى ذلك الحد؟ ولم لقي قرار انهاء خدماتهم الترحيب على رغم الاسلحة والمساعدة التي قدموها لنا ؟ ولم اصبح الفريق صادق شخصية مقبولة في القوات المسلحة كنتيجة للمقاومة المفروض انه بذلها ضد النفوذ السوفييتي؟

وللأجابة عن هذه الاسئلة، فانه لا بد لنا من ان نعود الى العام ١٩٥٥، والى اول صفقة من السلاح عقدها الرئيس عبد الناصر مع الاتحاد السوفييتي . لقد لقيت تلك الصفقة ذلك الترحيب الكبير في مصر، لانها انهت احتكار الغرب للسلاح في المنطقة، ومكنت مصر من الحصول على أسلحة تدافع بها عن نفسها في الوقت الذي كانت امريكا ترفض فيه مد مصر بالسلاح ، وفي الوقت الذي قامت اسرائيل بغارتها على غزة وقتلت ٣٩ شخصا لتظهر بها انها اشد القوى عدوانا . لكن الصفقة، من الناحية العملية، خلقت مصاعب . فلقد تبين للضباط المصريين انهم يحصلون على أسلحة لم يتعودوها، يقوم بتدريبهم عليها ضباط سوفييت، وتكتب الارشادات والتعليمات كلها في اللغة الروسية. وكان الجيش كله مضطرا الى ان يتحول من اسس غربية الى أسس شرقية . وعندما فرضت علينا حرب سيناء بعد عام من توقيع الصفقة استطعنا ان نحقق نصراً سياسياً كبيراً ، لكن الاسلحة السوفييتية لم تبل بلاء حسناً، وان كان الانصاف يقتضي ان نقول انها لم تختبر الاختبار الصحيح .

كانت تلك اول مرحلة من مراحل ارتباط مصر مع الاتحاد السوفييتي . وغطت المرحلة الثانية السنين العشر بين حرب السويس وحرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧. وكان الرئيس عبد الناصر، قرر انه لا بد للقوات المسلحة من أن يعاد طراز تسليحها، ولا بد لذلك من ايفاد بعثات الى الاتحاد السوفييتي تتعلم على الطبيعة هناك طريقة التفكير العسكري السوفييتي واستخدام الاسلحة السوفييتية. وكانت اولى البعثات التي اوفدت الى هناك بعثة من رتبتي الفريق واللواء ، باعتبار انه لابد لمن سيتولون قيادة الجيش الجديد من ان يكونوا مؤهلين للقيادة اللازمة . وهكذا سافر رجال مثل الفريق عبد المنعم رياض والفريق احمد اسماعيل والفريق محمد فوزي والفريق عبد المحسن مرتجى والفريق محمد احمد صادق واللواء عبد القادر حسن ، والتحقوا بالاكاديمية العسكرية في موسكو . وكان معظم هؤلاء الرجال من خريجي كليات عسكرية في اوروبا الغربية او امريكا ، وكان من الطبيعي ان يجدوا الجو في موسكو مختلفاً كل الاختلاف عن جو "ساندهيرست " او "وست بوينت "، وأن يشعروا بالضيق وهم يرون انفسهم مرة أخرى في قاعات الدرس يستمعون الى محاضرات غالبا ما يلقيها عليهم مدرسون اصغر منهم سناً واقل منهم رتبة ، وينقلها الى العربية مترجمون سوفييت في وقت لابد من الاعتراف بأن مستوى الترجمة الى العربية في الاتحاد السوفييتي كان حينئذ ضعيفاً حقا . وفضلاً عن ذلك ، فان هؤلاء الضباط المصريين لم يكونوا- بسبب حاجز اللغة- يشاركون زملاءهم السوفييت المعلومات ، وانما كانوا يشعرون بأن الدروس التي تلقى عليهم ليست بالقوة التي ينتظرونها وتنقل اليهم في عربية ركيكة، بل ان البعض منهم ممن تعلم من اللغة الروسية ما يكفيهم للاستغناء عن المترجمين كانوا يشعرون بعامل التفرقة في المعاملة لانهم كانوا مستثنين من حضور بعض المحاضرات في العلوم المتقدمة والتي تتسم بطابع السرية . يضاف الى ذلك انهم لم يكونوا يستطيعون ان يزيدوا معلوماتهم بقراءة المجلات والتقارير المتخصصة كما كانوا يفعلون وهم في الغرب ، لان مثل هذه المجلات لم تكن متاحة للاطلاع

العام في الاتحاد السوفييتي وأخيراً ، فانهم كانوا بطبيعة الحال يشعرون بأن ظروف المعيشة ونظم التدريس في الاتحاد السوفييتي مختلفة تماماً عما تعودوه في بلادهم .

ثم جاءت كارثة العام ١٩٦٧، وما اعقبها من فترة تبادل للاتهامات في كل مكان. كان الضباط المصريون يقولون ان اللوم فيها يقع على الاسلحة السوفييتية التي كانت لديهم ، وكانوا يقولون مثلاً ان الدبابات صممت بحيث تصلح للعمل في جو القطب الشمالي ولا تناسب على الاطلاق العمل في الصحراء في عز الصيف . وفي الجانب الاخر راحت مطبوعات الحزب في الاتحاد السوفييتي تتهم الضباط المصريين بأنهم ينتمون الى مجتمع بورجوازي يفتقر الى الخلفية الاجتماعية اللازمة لكفاح مسلح ناجح . والواقع اني كنت دائماً اصر على أن الجيش المصري لم يمنح ابداً فرصة القتال في العام ١٩٦٧. فالامر المفجع الذي اصدره المشير عبد الحكيم عامر بالانسحاب من سيناء عبر القناة بعد ساعات قليلة كان معناه ان ثمانين في المئة من قوات الجيش لم تشتبك مع العدو ابدا . صحيح ان في مصر قلة قليلة من نوع "الجندي الطري "، شأنها في ذلك شأن اي بلد في العالم ، لكن الغالبية العظمى من كل الرتب في الجيش كانت مستعدة وقادرة على الصمود والاستشهاد .

وعلى اية حال فان الرئيس عبد الناصر اتخذ القرار باعادة بناء القوات المسلحة من القمة الى القاعدة، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف قرر قبول الاستعانة بخدمات الخبراء السوفييت حتى مستوى الكتيبة . وكان لابد لهذا القرار ان يثير الكثير من الشعور بعدم الرضا . وكان السؤال : هل النصائح التي يقدمها هؤلاء الخبراء مجرد نصائح ... او انه لا بد من تنفيذها ؟ وحين جاءهم الرد بأن هذه النصائح ملزمة لهم فان الكثيرين منهم شعروا بالضيق ، ذلك انهم لم يكونوا يعتبرون ان هزيمتهم نشأت عن أي قصور من جانبهم يمكن الخبراء السوفييت – ومرة أخرى لابد بواسطة مترجمين من عندهم – ان يصلحوه ، ثم انهم هم انفسهم لديهم خبرة قتال يفتقر اليها مستشاروهم . لقد قاموا بقيادة الدبابات وخاضوا غمار معارك ضد العدو وبطائرات " الميج " وهو مالم يفعله السوفييت . وهم على دراية بالظروف المحلية لا يمكن ان تتحقق للسوفييت . يضاف الى ذلك ان التفكير العسكري السوفييتي لا يزال قائما على اساس ذكريات الحرب العالمية الثانية عن جبهة عرضها ٢٠٠٠ ميل ، في حين أن من غير المحتمل على الاطلاق ان يعمل الجيش المصري في جبهة يزيد عرضها على ١٠٠ ميل . (طول قناة السويس). وكان السوفييت يتركون في بعض الاحيان انطباعاً بأنهم يخطبون ود الرتب الاخرى ولا يهتمون بالضباط لانهم في نظرهم "جيش طبقة" الخ ... كذلك، فان نوعية الخبراء كانت متباينة الى حد كبير. فقد كان بعضهم مثل الجنرال لاشينكوف الذي جاء مع الماريشال زاخاروف في العام ١٩٦٧، وبقي في مصر كرئيس للبعثة السوفييتية يحظون باحترام عالمي ، لكن بعضهم الاخر كانوا اقل شأناً ، والمرض- كيا يقول المثل- معد ، لكن الصحة غير معدية . وكان انخفاض النوعية يبدو بصورة اوضح واسرع في السلاح الجوي بوجه خاص، مما أثار الشكوك في أن السوفييت يستخدمون مصر كمسرح مثالي لتدريب صغار ضباطهم في كل فصول السنة ، ولقيت هذه الشكوك سنداً في العدد الكبير من الطائرات التي تحطمت وفقدت عام ١٩٧١ وعام ١٩٧٢ في عمليات التدريب بطياريها المصريين او السوفييت والتي بلغ عددها ٦٨ طائرة . وفوق هذا كله كانت هناك الحوادث التي سبق ذكرها مثل تهريب الذهب او حادث وصول الاميرال جورشيكوف الى الاسكندرية وسفره في الطائرة منها مباشرة الى القاهرة للتشاور من دون ان يمر على قائد البحرية المصرية في الاسكندرية للسلام عليه كما تقضي الاصول. فقد اعتبر اللواء بحري عبد الرحمن فهمي- المعروف بتمسكه الشديد بالتقاليد- هذا الحادث ماسا بكرامته، ورفض ان يسافر الى القاهرة لمقابلة الاميرال السوفييتي .

ولا بد ان نذكر هنا أن فترة "حرب الاستنزاف " كانت طوال تلك المدة عاملاً مؤثرا جداً في حفز الشعور الوطني في مصر. فقد هيأت للشعب المصري ان يعيش في حالة تعبئة نفسية ، ودعيت الجبهة الداخلية لان المدنيين كانوا يتعرضون للنيران نفسها التي يتعرض لها العسكريون ، وحقنت الجيش

بشعور المعركة المستمرة. وهذا كله شجع الشعور بالرفض لكل ما كان يعتبرنفوذا خارجياً او دعوة الى ضبط النفس .

وكما رأينا، فان الفريق صادق ، القائد العام للقوات المسلحة، كان قد أصبح محط انظار أولئك الذين كانوا يمقتون المركز الذي اكتسبه السوفييت في مصر. لكن سقوط الفريق صادق لم يستغرق طويلاً ، وتم بعد سحب الخبراء السوفييت بفترة قصيرة .

ذلك ان الرئيس السادات والفريق صادق كانا منذ زمن طويل يختلفان بالنسبة الى الكثير من المسائل. وكان هناك خلاف اساسي بين وجهات نظرهما بالنسبة الى الطريقة التي تحارب فيها مصر المعركة. كانت خطط "جرانيت " لا تزال تسيطر على تفكير الفريق صادق الذي لم يكن يؤمن باحتمالات الحرب المحدودة التي كان الرئيس يعتقد انها يمكن ان تحقق مكاسب سياسية كبيرة . وكان الفريق- في نظر الرئيس- متطرفاً جدا في موقفه من السوفييت، ويميل ، الى الزج بنفسه في السياسة . فقد كان، على سبيل المثال، يعارض الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء بشدة ، ويتهمه بموالاة السوفييت، ويعلن هذه المعارضة امام غيره من كبار الضباط .

لكن التوتر بين الرجلين لم يبلغ ذروته الابعد ثلاثة اشهر. كان السوفييت عندئذ قد بدأوا يتبعون اسلوبا جديدا بعدما افاقوا من الصدمة ، وبدوا راغبين في استعادة الارض التي فقدوها وذلك عن طريق الاسراع بشحن كميات ضخمة من الاسلحة الى درجة اذكر معها ان الرئيس السادات قال لي في احد الايام : " انهم يغرقوني بالاسلحة الجديدة ". فقد تلقت مصر في الفترة ما بين ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٢ ويونيو (حزيران) ١٩٧٣ ، كميات من السلاح تفوق ما تلقت فى منه طوال السنتين السابقتين. وكان الرئيس السادات يشعر بان فترة ما بعد انتهاء الانتخابات الاميركية هي الفترة التي يجب على مصر ان تقوم فيها بتحرك في الميدان العسكري با عتباره السبيل الوحيد لكسر الجمود في الموقف في الشرق الاوسط .

وفي مساء يوم ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول) دعا الرئيس السادات الى اجتماع لمجلس الامن القومي في منزله في الجيزة ، حضره ١٥ لواء وفريقا واللواء بحري عبد الرحمن فهمي ، واستمرت المناقشات التي اشتدت حدتها في كثير من الفترات ، الى مابعد منتصف الليل . كان الرئيس يؤيد بشدة فكرة الحرب المحدودة ، ويركز على النقطة المفضلة لديه، وهي انه اذا نجح في كسب عشرة ملليمترات فقط من الارض على الضفة الشرقية لقناة السويس ، فان هذا سيعزز موقفه الى ابعد حد في مفاوضاته السياسية والديبلوماسية اللاحقة . لكن عددا من كبار الضباط ابدوا تشككهم ، واعرب الفريق صادق عن اعتقاده أن الاسلحة والمعدات اللازمة لمثل هذه العملية غير متوافرة لديه ، بينما اشتبك مساعده الفريق عبد القادر حسن في جدل مع الرئيس اضطر معه الرئيس الى التهديد بطرده ، وترك الاجتماع لفترة، وخرخ الفريق صادق واللواء عبد القادر حسن وراءه يعتذران اليه ، لكن الاجتماع انتهى الى نهاية محزنة ومن دون التوصل الى قرار حاسم .

وبعد يومين كان الرئيس قد استقر على قرار. ففي الساعة الرابعة بعد الظهر استدعى الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس الاركان وقال له : " اعتبر نفسك قائدا عاما للجيش ابتداء من هذه اللحظة " . ثم بعث يستدعي اللواء احمد اسماعيل واصدر اليه الأمر بحلف اليمين باعتباره وزيرا للحربية . وفى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين أوفد سكرتيره الى منزل الفريق صادق برسالة تقول : " لقد قبل الرئيس استقالتك " ، (وفي الحقيقة فإنه لم يستقل) . وفي اليوم التالي كان وزير الحربية ومساعده وقائد البحرية وقائد المنطقة العسكرية المركزية ، ومدير المخابرات ، قد فصلوا من مناصبهم .

على ان هناك ملحوظة تجدر الاشارة اليها خاصة بقصة الصدام مع السوفييت . ففي لقائه مع الصحافيين المصريين تحدث الرئيس عن رسالة تلقاها من واشنطن " سرا " تذكره ان مفتاح الموقف هناك. وكانت مجرد صدفة ان الامير سلطان وزير الدفاع السعودي كان في زيارة لواشنطن قبل ان يصدر الرئيس قراره الخاص بسحب الخبراء مباشرة . كذلك، فان كمال ادهم كان في ذلك الوقت في زيارة للقاهرة، وسواء اكانت هناك اي صلة بين القرار والصدفتين ، فهذا ما لا اعرفه، وما لا يمكن احد منا ان يعرفه ، الا اذا شاء الرئيس ان يطلعنا عليه ، ولكن من الواضح ان هناك شخصا واحدا لم يبلغه مقدما وهو هنري كيسينجر . فقد قال لأحد مساعديه بعدما اصبح القرار معروفا للجميع : " اني لا افهم الرئيس السادات ، فلو جاء قبل ان يحدث ذلك واخبرني به لشعرت باني مضطر الى ان اقدم له شيئا في المقابل ، لكني حصلت عليه كله بدون مقابل " .

واعتقادي الشخصي انه سواء اكان الاميركيون قد ابلغوا القرارمقدما ام لا، فان الملك فيصل حاول بعد صدور القرار ان يضغط على الاميركيين بشدة على اعتبار انها الفرصة للقيام بتحرك ما . وهناك كثير من الرسائل من المصادر السعودية تؤكد ان الملك فيصل قال للرئيس نيكسون انه سيجد نفسه شخصيا في مركز شديد الحرج اذا لم يفعل الاميركيون شيئا . وشكا من ان العرب يوجهون اليه اللوم بشأن اي عمل يقوم به الاميركيون في الشرق الاوسط ، ولا يفهم السر في اعتباره ممثل أمريكا في الشرق الاوسط . ولا بد اند قد ركز على واشنطن ان الحجة الرئيسية التي يتذرع بها الاميركيون لعدم الحركة زالت بخروج السوفييت من مصر ، فقد ظلوا يؤكدون بصورة مستمرة ان وجود الجنود السوفييت في مصر هو الذي أضفى على الموقف فى الشرق الاوسط حالة المواجهة العالمية ، أما الآن ، فانه اذا واصل الاميركيون مساعدة اسرائيل ، فانهم لن يستطيعوا بعد ذلك ان يزعموا ان تلك المساعدة تقوم على استراتيجية موجهة ضد السوفييت ، انما ستصبح ببساطة مجرد سياسة لمساعدة عدو العرب الرئيسي لمجرد مساعدته فقط .

الجزء العاشر
ليبيا

كان الرئيس الليبي معمر القذافي- لاسباب مختلفة- احد الذين رحبوا بقرار سحب الخبراء السوفييت، لكنه خشي من ان يكون القرار قد وضع الرئيس السادات وحكومته في مأزق، اعتقادا منه ان السوفييت قد يحاولون الا نتقام لانفسهم . واراد ان يكون مصدر عون لمصر، واختار ان يقترح لذلك وحدة كاملة بين البلدين : مصر وليبيا .

وكانت فكرة الوحدة دائما امنية غالية لدى القذافي . وقد سبق ان شرحت كيف انه اثار موضوع الوحدة بين مصر وليبيا في اليوم الثاني مباشرة من قيام الثورة الليبية ، وذلك في اللقاء الذي تم بيننا في القنصلية المصرية في بنغازي . قال لي يومها ان ايمانه الشديد بالوحدة العربية هو الذي جعله يطلق على حركته اسم " الضباط الوحدويون الأحرار" . وقال : " عد الى القاهرة، وقل للرئيس عبد الناصر اننا لا نريد ان نحكم ليبيا، ونريده ان يتولى الحكم بنفسه ، ويقود ليبيا من المعسكر الرجعي الذي تقف فيه الى المعسكر التقدمي الذي يجب ان تنضم اليه ".

وفي اكثر من مناسبة بعد هذا اللقاء ، اقترح القذافي فكرة الوحدة مع مصر، وكان الجواب الذي يتلقاه ان الوحدة يجب ان تتم بالطريقة الصحيحة وبعد اعداد دقيق . وكان يقال له انه لا بد من استيعاب دروس المحاولة السابقة للوحدة بين مصر وسوريا . بيد اني اجد من الضروري- قبل الدخول في تفاصيل التاريخ المتقلب للعلاقات بين مصر وليبيا- القاء نظرة على شخصية الرجل الذي أثر أيما تاثير على مجرى الحوادث ، اعني : معمر القذافي .

كان هناك رجلان وخلفيتان صنعتا من القذافي ما هو ، اما الرجلان هما : النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والرئيس جمال عبد الناصر . وهذا المزيج من الفكر الاسلامي ايام النبي والمباديء الثورية لعبد الناصر ، كان له تأثيره الكبير جدا على القذافي ، ولا سيما في فترة تكوين شخصيته – وهي فترة ما بين حرب السويس العام ١٩٥٦ وحرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ – حين بدأ يدرك ما يدور في العالم حوله . أما الخلفيتان فهما : الجيش والصحراء . لقد كان الجيش هو المكان الذي اكتشف فيه نفسه لأول مرة ، وكانت الصحراء هي المكان الذي يعدو اليه حين يشعر بالرغبة في العزلة ، كان يحب الجيش بكل مافيه من اوامر وخضوع للنظام ، لأن غرائزه ظلت كما كانت ... غرائز رجل البادية الحر ، كان اذا سمع ، مثلا ، ان احد زملائه في مجلس قيادة الثورة قد انتقل الى سكن في المدينة ، يطلب اليه العودة الى الثكنات فورا . وكانت الصعوبة التي تواجهه هي انه كان يفتقر الى الخبرة التي تمكنه من هضم كل العناصر المؤثرة التي تتصارع داخل نفسه ، لكن نتيجة هذا الصراع تجلت في هذه الشخصية الفريدة المعقدة بصورة مذهلة .

وهذه حادثة صغيرة لكنها ذات مغزى :

كان القذافي في القاهرة في احدى المناسبات : ودعاه الرئيس عبد الناصر الى تناول طعام العشاء معه ، وكانت اول مرة يرى فيها القذافي الجمبري . وبدا الذعر على وجهه ينظر الى طبقه ويسال : " ما هذا ؟.. جراد ؟ أتأكلون الجراد في مصر؟ " . وضحك عبد الناصر وقال : " كلا هذا ليس جرادا وانما جمبري " . فسأل القذافي : " وما هو الجمبري " . ورد عبد الناصر أنه نوع من السمك . لكن القذافي رفض ان يأكله وقال : " انا لا آكل السمك لأنه لا يذبح على الطريقة الاسلامية ، حيث يقول من يتولى عملية الذبح قبل ان يبدأ الذبح : الله اكبر. ان هذا الجمبري ميت. ولا يمكنني اكل الميتة ". وضحكنا جميعا بطبيعة الحال . لكن هذا الرجل نفسه اظهر فهما تاما لطريقة استخدام الاذاعة في مد تأثيره خارج حدود ليبيا. وكانت دعايته مؤثرة في بعض الاحيان ، وغير مؤثرة احيانا اخرى ، لكن من المؤكد انه استطاع ان ينشيء شبكة اذاعة على درجة عالية من الكفاءة .

... وحادثة اخرى تكشف عن التناقض :

يوم أرسل القذافي، كضابط شاب، في بعثة تدريب الى بريطانيا، رفض الاقتراب من لندن ، لأنه كان يعتبر ان الخطيئة كامنة في المدينة. وتوجه من المطار الى معسكر التدريب مباشرة ، وظل في المعسكر طوال فترة التدريب ، وعاد منه الى المطار مباشرة ، ومنه الى وطنه. ومع ذلك، فان هذا الرجل هو نفسه استطاع بعد الثورة ان يعالج بنجاح، اكثر المشاكل صعوبة . فقد استطاع خلال الأشهر الستة الأولى لتوليه الحكم ان يخرج الانجليز والامريكيين من بلاده ، ويستعيد منهم قاعدتي العضم وهويلس. كما نجح في المفاوضات التي اسفرت عن عقد اتفاقيات افضل مع شركات البترول .

ويبدي القذافي في بعض الاحيان براءة مذهلة بالنسبة الى مجريات الأمور في عالمنا الحديث، ويبسط الأمور الى ابعد الحدود . وعلى سبيل المثال ، فلقد ساورني القلق مرة بشأن الطريقة التي يتدخل بها القذافي في بلاد كأيرلندا، وحاولت اقناعه بأن الثوار الايرلنديين لا يمثلون حركة تحرير بالمعنى الذي نفهمه . وكثيرا ما حاولت ان اقنعه بان قضية بنجلاديش قضية تقرير مصير، وان الدولة الجديدة تستحق الاعتراف بها من قبل ليبيا. لكنه لم يستطع ان يراها بهذه الصورة ، فقد كانت باكستان في نظره اكبر دولة اسلامية في العالم ، اما بنجلاديش فليست الا حركة انفصالية ممزقة.

وكأي من ابناء البادية، فان القذافي يستطيع ان يتغير في لحظة، من موقف الى موقف ضده على طول الخط . وكان مفتوناً بلعبة القوى . وعلى رغم انه في الاصل رجل صبور، الا انه قادر على ان يظهر اشد انواع فروغ الصبر. وعندما بدأ تصنيع بلاده اراد لكل شيء ان يتم على الفور. لم يكن لديه وقت

للدراسات او الابحاث العلمية، ولا للعطاءات او مفاوضات العقود وغيرها. كان لديه المال . وكان كل ما يهمه بالنسبة الى أي امر يريد قضاءه ان يعرف السرعة التي يمكن قضاؤه فيها . ومع ذلك ، فانه بدأ حركته الثورية ولا يزال طالبا في المدرسة الثانوية. وطوال تلك السنوات ، منذ ان كان في الخامسة عشرة او السادسة عشرة من عمره حتى بلغ السابعة والعشرين وشعر بان الوقت قد حان لتوجيه ضربته - استطاع ان يحكم زمام السيطرة على نواة حركة سرية للتآمر، والابقاء على ولاء من اشتركوا فيها، وعلى صمتهم وصبرهم .

وليست قوة مشاعرة الدينية بحاجة الى تعريف. فقد ظل لسنوات يرفض التعامل مع الاتحاد السوفييتي لانه يعتبره بلد الالحاد. وعندما جاء كوسيجين الى مصر، كان تعليق القذافي : " اني لا افرق بين كيسينجر وكوسيجين .. كلاهما غريب عنا ". وقد حاول عبد الناصر ان يغير من رأيه وقال له في اثناء زيارته الأولى لليبيا : " اننا لا نستطيع ، يا معمر، ان نضع الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة على قدم المساواة . فعلى رغم ان الاتحاد السوفييتي دولة ملحدة كما تقول ، فانها تقف معنا. وفي حين ان الولايات المتحدة دولة مسيحية، كما يدعون ، فانها تقف ضدنا " . لكن القذافي مضى في هجومه على الاستعمار والالحاد والاتحاد السوفييتي من دون تمييز، الى ان اضطر عبد الناصر الى تحذيره ذات مرة في بنغازي من انه اذا استمر في هذا الهجوم ، فانه سيرفض ان يقف معه على منصة واحدة . وكان رد القذافي: " حسنا.. سألزم الصمت ". فقال عبد الناصر: " لا ... انا لا اريدك ان تفعل ذلك، بل اريدك ان تميز بين الصديق والعدو " .

لكن القذافي ظل على غير اقتناعه، ورفض ان يعترف بان الماركسية عقيدة لها اي صلة بمشاكله. وقد حاولت ان اقنعه خلال الكثير من لقاءاتي معه بأنه مهما بدا من ان الماركسية قد لحقتها تطورات كبيرة في كثرة من النواحي ، فانها جزء أساسي من الفكر السياسي لعالمنا المعاصر. لكنه ابى ان يرى ذلك. وكان كلما جاء الى القاهرة يأتي لزيارة " الاهرام " حيث كنت ارتب له لقاءات مع بعض اصحاب خيرة العقول في مصر، يناقشهم ويناقشونه في كل موضوع . واعتقد انه كان يستمتع بهذه اللقاءات على رغم ما لا بد ان يكون شعر به من رعب نتيجة الكثير مما كان يسمعه فيها . وكثيرا ما كان يطلب ورقا يسجل علب ما يدور في هذه المناقشات. واذكر انه سجل في احداها ما ملأ ثلاثة "بلوك نوتات ". بل انه في كثير من الاحيان كان يسجل النقاش بالحرف . وقد عرضت عليه ان تقدم اليه المناقشات مكتوبة، لكنه فضل ان يسجلها بنفسه .

وكان لا بد ان تتأثر نظرة القذافي الى الأمور بالحالة التي كان عليها العالم العربي يوم تولى الحكم في ليبيا. فلم يكن خريف العام ١٩٦٩ فترة سعيدة في حياة العرب . كانت مصرلا تزال تعيش حالة ((اللا سلم واللا حرب " كنتيجة لهزيمة العام ١٩٦٧، حيث كان من الصعب على كائن من كان ان يرى الطريق واضحا امامه . وكان المال يتدفق غزيرا من البترول ، لكن معظمه كان في ايدي انظمة الحكم المحافظة. وكان الجميع يحاولون ان يجدوا لانفسهم مكانا لقدم في ليبيا، تغريهم الى ذلك ثروتها البترولية وموقعها الاستراتيجي ... ا لجزائريون، والمصريون، وجناحا البعث المتنافسان في كل من سوريا والعراق ، ناهيك عن الأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين . بل ان الملك فيصل نفسه حاول خطب ود القذافي، وقال في احد الايام : " ومن لي برجل كان يمكن ان اتصور يوما ان يكون افضل من هذا الشاب الذي يقوم الان بالتبشير بالعقيدة الخالصة للاسلام ؟ " . لكن العرب كلهم – واخشى ان يكون هذا بلا تمييز- كانوا يتقولون بعضهم على بعض . وكان السودان يدعي لنفسه علاقة خاصة مع ليبيا، لأن ثورته قات قبل الثورة الليبية بوقت قصير- في ١٥ مايو (ايار) – ويصف الثورتين بانهما " الثورتان الاخت " . وحاول الرئيس نميري في احدى المناسبات ان يحكي للقذافي عن " تجاربه الثورية " لكن القذافى كان يرى ان تقدم أي ثورة بثلاثة اشهر على ثورة اخرى لا تعطي اسبقية كبيرة في التجارب .

وهكذا... فسرعان ما وجد القذافي ورفاقه انفسهم غارقين وسط الآراء والافكار والنصائح المتعارضة بحيث حاروا في ما يتبعونه منها . وكانت النتيجة الوحيدة التي توصلوا اليها ، هي انه ليس هناك شخص يمكن ان يثقوا فيه حقيقة ، باستثناء عبد الناصر الذي كانوا يثقون فيه كشخصية اسطورية. لكنهم لم يكونوا يروه الا قليلا . واذكر اني كنت في طرابلس مع الرئيس عبد الناصر في احد ايام العام ١٩٧٠، وكنا ننزل في قصر ولي العهد السابق الذي تحول الى قصر للضيافة، حين انتحى بي القذافي جانبا (وكان هو نفسه لا يزال يعيش في الثكنات) وقال لي: " لا بد انك تعرف كل شيء عن ثورة السودان، أليس كذلك ؟ "، وقلت : " اظنني اعرف اشياء قليلة " . فقال : " حسنا.. انهم يقولون لي ان نميري كنجيب (اللواء محمد نجيب رئيس جمهورية مصر السابق) وليس كعبد الناصر. فهل هذا صحيح . هل هو مجرد صورة... او انه زعيم حقيقي؟ ". وضحكت. لكن ذلك كان نوع المعلومات التي يغذونه بها طول الوقت، والتي جعلت من العسير عليه ان يعرف هذا من ذاك . وكان في بادىء الأمر يصدق كل ما يقال له ، لكنه اصبح في ما بعد يتشكك في الكثير مما يقال له بعدما تبين انه كثيرا ما خدع .

كان القذافي انسانا بسيطا نقي السريرة وجد نفسه في عالم معقد مليء بالمؤامرات والمناورات . وفي اواخر ايام مؤتمر القمة في الرباط الذي كان اول مسرح دولي يظهر عليه القذافي ، جاءني يقول: " ما الذي ستكتبه عن هذا المؤتمر ؟ ... انه بحسب تقديري مؤتمر فاشل " . وقلت: " اذا كنت سأكتب أي شيء، فالأرجح انه سيكون عنك ". وقال مندهشا : "عني أنا ؟ وما الذي يمكن ان تقوله عني ؟ " ، قلت: " سأكتب مقالا اجعل عنوانه : طرزان في نيويورك، لانك كنت فيه الرجل القادم من الطبيعة العذراء الى المدينة المعقدة " .

وقد حزن القذافي حزنا شديدا لوفاة عبد الناصر. ولم يكن حزنه لمجرد ان اعجابه بعبد الناصر كان يفوق اعجابه بأي مخلوق آخر وحسب، انما لانه ظل يؤمن بالدور المركزي لمصر في العالم العربي. صحيح ان الكثير مما في مصر كان يثير شعورا بالصدمة في نفسه- كالملاهي، والمراقص - لكن ايمانه لم يهتز ابدا بان مصر هي المفتاح . لذا، فقد شعر بعد وفاة عبد الناصر بان هناك فراغاً في العالم العربي كبيرا جدا يتعذر على اي رجل اخر ان يملأه . (ولست اظن، كما يقال في بعض الأحيان، انه اراد ان يملأ الفراغ بنفسه) . ومن هنا كان رأيه ضرورة وجود قيادة جماعية من مصر وسوريا وليبيا. ومن ناحيتي انا، فقد كنت دائما من المؤمنين بوحدة تجمع بين مصر وليبيا. وما زلت عند ايماني بها. كان رأيي ان هناك فرصة تاريخية فريدة متاحة للدولتين لتجميع مواردهما، وضم اراضيهما وشعبيهما واقتصاديهما في بلد واحد يمكن ان يصبح خلال عشر سنوات او نحوها دولة واحدة قوية ، وقوة كبرى في المركز الاستراتيجي لشمال أفريقيا وعلى الجسر بين افريقيا وآسيا. وكان يمكن هذه الدولة ان تصبح نواة حقيقية يتحقق من حولها الحلم القديم بشعب عربي متحد. ولم يخطر ببالي ابدا ان يكون تحقيق هذا الرسم العظيم رهنا بشخصية أناس بعينهم . صحيح ان الشخصيات مهمة ، لكن من الممكن وضع الشخصيات في الأماكن المناسبة لمجرد ان تظهر الرغبة في تحقيق الهدف . كذلك ، فاني لم اكن ابدا ممن يؤمنون بان هناك شيئا اسمه رجال ثوريون ، انما هناك مواقف ثورية فقط ، والرجل الثوري هو الذي يرى الموقف ويستجيب له ، وما حدث فى العام ١٩٧١ والعام ١٩٧٢ ايام الازمة والحالة القريبة من اليأس التي سادت العالم العربي كان واحدا من هذه المواقف . ولو كنا انتهزنا الفرصة لكنا خطونا خطوة كبيرة الى الأمام نحو نظام افضل في هذا العالم .

ونستطيع بنظرة نلقيها على العلاقات بين مصر وليبيا في هذه الفترة ، ان نرى انها مرت بثلاث مراحل. الأولى ، تبدأ من يوم قيام الثورة الليبية حتى وفاة عبد الناصر (سبتمبر ١٩٦٩ حتى سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠) . وكان الليبيون يعتبرون انفسهم ما يمكن ان يوصف بـ " ابناء " الثورة المصرية. والثانية ، تبدأ من يوم وفا ة عبد الناصر الى يوم سحب الخبراء السوفيات من مصر (سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ حتى يوليو (تموز) ١٩٧٢) . وكان القذافي خلا لها حائرا بالنسبة الى ما يحدث في مصر- من صراع حول السلطة الى العلاقات المصرية السوفييتية . والثالثة، تبدأ من يوليو (تموز)١٩٧٢ حتى حرب

اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣، وقد قدمت ليبيا خلالها اقتراح الوحدة الكاملة ، وقبلته مصر وناقشته، لكنها في النهاية غضت النظر عنه .

لقد قدم الاقتراح في ٢٦ يوليو (تموز)، وقبله الرئيس السادات في ٣١ يوليو (تموز) ، وسافر الى بنغازي في ٢ اغسطس (آب) لبحث طرق تنفيذه ووسائله . واتفق هناك على ان تتم الاستعدادات لتنفيذه خلال مدة تزيد قليلا عن سنة - حتى اول سبتمر (ايلول) ١٩٧٣ وشكلت لجان مشتركة لبحث كل جانب من جوانب الدولة الجديدة، بحيث تشمل صيغة لدستور جديد، وتشكيل مجلس شعب جديد، والتنسيق بين النظم التشريعية والاقتصادية والتعليمية الخ ... وكان هناك شيء واحد تم الاتفاق عليه بسرعة، وهو اسم الدولة الجديدة . لقد اتفق على تسميتها مرة اخرى " الجمهورية العربية المتحدة " (ولما كان القذافي يعرف حب المصريين لاسم بلادهم ، فانه اقترح ان يطلق اسم مصر على محافظة القاهرة ، في حين ان اسم مصر تغير أيام الوحدة مع سوريا الى اسم " الاقليم الجنوبي ") .

وان هي الا فترة قصيرة ، سرعان ما تبين لي بعدها ان الأمور لا تسير على ما يرام . فكالعادة في مثل هذه الحالات كان الكثيرون ممن وقع الاختيار عليهم اعضاء في هذه اللجان اشخاصا من السهل جدا على حكوماتهم ان تستغني عن خدماتهم . وكان ان بدأوا يختلقون المصاعب، ويركزون على اوجه الاختلاف بين البلدين ويقللون من قيمة اوجه التشابه . وضاعفت من امر هذه العقبات البيروقراطية تلك الاختلافات الشخصية بين الرئيسين . فقد كان الرئيس القذافي يرى ان الرئيس السادات ليس ثوريا بالدرجة الكافية ، في حين كان الرئيس السادات يرى ان الرئيس القذافي شاب تنقصه التجارب وربما الاتزان . وجاء وقت اتهم فيه الرئيس القذافي الرئيس السادات بانه- في قرارة نفسه- لا يريد الوحدة. وعندما ساورت الشكوك الرئيس السادات في ان هدف الرئيس القذافي من الوحدة ليس الوحدة في ذاتها، بمقدار ما هو السعي الى توسيع ميدان طموحه، قال الرئيس القذافي انه مستعد لان يستقيل لمجرد اتمام الوحدة . لكن الرئيس السادات لم يصدقه، وقال له انه يمثل الجيل المقبل للثوريين ، وان دوره سيأتي ان كان مستعدا للانتظار. ولم يجد الرئيسان معونة من جانب الرسل الذاهبين بينهما لتخفيف حدة خلافاتهما ، بل لعل هؤلاء الرسل زادوا من حدة هذه الخلافات بدلاً من تخفيفها .

ومع بداية العام ١٩٧٣ كانت الآمال في امكان تحقيق اي شيء ، قد بدأت تتضاءل . ثم وقع حادث خطير كاد يتسبب في ازمة يتجاوز نطاقها حدود العلا قات المصرية - الليبية وحدها . فقد ضلت احدى الطائرات المدنية الليبية وجهتها فوق سيناء ، وهي في طريقها الى القاهرة واسقطتها مدافع المقاتلات الاسرائيلية وقتل من فيها وعددهم ١١١ راكبا من بينهم وزير الخارجية الليبية السابق صالح بويصير. وأستشاط القذافي غضبا كما هو متوقع، وكان تفكيره بالغريزة ان يرد بعمل انتقامي سريع ضد مرتكبي الجريمة، وكان مصمما على ألا تصبح ليبيا واحدة من تلك الدول العربية التي تخضع بضعف لاعمال العدوان الاسرائيلي . وحاول الرئيس السادات تهدئته ، وقال له اننا نستعد لمعركة مع اسرائيل ستكون خير انتقام لحادث الطائرة الليبية ولغيره من اعمال الاهانة الكثيرة التي تعرض لها العرب ، واوضح له انه اذا قامت الطائرات الليبية بضرب حيفا (وكان هذا احد اقتراحات القذافي) فإن اكثر النتائج احتمالا لمثل هذا العمل ان تقوم الطائرات الاسرائيلية بضرب آبار البترول الليبية ، وان ما قد يترتب على ذلك لا يمكن ان يساعد قضية العرب .

ومما زاد الموقف تعقيدا ان الاشاعات انطلقت حينئذ تقول انه كان في امكان السلاح الجوي المصري ان يخرج لانقاذ الطائرة الليبية وارشادها الى طريق آمن لو أراد . وكان السلاح الجوي المصري قد ذكر ان حالة الجو لم تكن يومها تسمح بالخروج بسرعة لعملية الانقاذ . لكن الرد من جانب القذافي كان : اذا كانت حالة الجو قد سمحت للطائرات الاسرائيلية بالخروج ، فكيف لا تسمح به للطائرات المصرية ؟ وشهد اليوم الذي شيعت فيه جنازة ضحايا الطائرة في طرابلس تظاهرات معادية لمصر ، وطبع ابن

صالح بويصير – احد الضحايا – منشورات تتهم المصريين بالجبن ، لكن القذافي أمر بالقبض عليه ووضعه في السجن . فقد كان لا يزال يحب مصر على رغم خيبة امله الشديدة فيها .

ثم تحدث هذه القصة الشديدة الغرابة .

كانت اسرائيل تستعد للاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس دولتها في ١٥ مايو (ايار)، واستأجر عدد من اثرياء اليهود في الولايات المتحدة وأوروبا الباخرة " كوين اليزابث ٢ " لتبحر بهم من ميناء ساوثهامبتون الى ميناء اشدود الاسرائيلي ، واتخذت ، بطبيعة الحال ، احتياطيات امن مشددة لحماية الباخرة طوال الرحلة باعتبار ان من عليها يشكلون هدفا رائعا لهجوم من جماعة أو اخرى من جماعات المقاومة الفلسطينية . لكن من اتخذوا هذه الاحتياطيات نسوا مصدرا محتملا آخر يمكن ان يكون خطرا على الباخرة .

وقد غادرت الباخرة " كوين اليزابيث ٢ " ميناء ساوثهامبتون يوم ١٥ ابريل (نيسان) . وفي يوم ١٧ ابريل (نيسان) تلقى قائد احدى الغواصات المصرية الراسية في ميناء طرابلس اشارة تطلب اليه التوجه لمقابلة الرئيس القذافي . وراح الضابط المصري الشاب يسائل نفسه في عجب عما يمكن ان يكون الغرض من وراء هذا الطلب ، لكنه نفذ الأمر ووجد الرئيس القذافي يبسط امامه خريطة لمنطقة شرق البحر الابيض المتوسط . وقال له في لهجة بدا فيها الود الشديد : " اني اتحدث اليك بصفتي مواطنا عربيا وقائدا للقوات المسلحة الليبية . انت الآن تعمل هنا .. معنا . فهل تستطيع ان تحدد موقع الباخرة " كوين اليزابث ٢ " في البحر المتوسط ؟ هل من الممكن ذلك بسهولة ؟ " . ورد الضابط المصري بان ذلك سهل . وكان السؤال الثاني للقذافي : " في مثل هذه الحالة .. هل يمكنك ان توجه الى الباخرة طوربيدين وتغرقها ؟ " .

ورد الضابط بان ذلك ممكن من الناحية النظرية ، لكنه عمل خطير ، ولا بد من ان يصدر له امر مباشر قبل ان ينفذه . وقال القذافي : " حسنا ... اني اصدر الأمر اليك .. وان شئت ان يكون امرا كتابيا فأنا مستعد لأن اكتبه لك " .

وعاد الضابط المصري الى غواصته واصدر الامر الى رجاله بان يكونوا على استعداد للابحار في عملية عاجلة وسرية . وكان القذافي قد اصر على ان تختفي الغواصة تحت الماء لمجرد خروجها من ميناء طرابلس لان من المؤكد انها موضوعة تحت المراقبة . ونفذ الشاب المصري الأمر ، لكنه صعد بها الى سطح الماء بمجرد حلول الظلام وبعث برسالة بالشيفرة الى قيادته في قاعدة الاسكندرية يبلغها الأمر الصادر اليه . وقد ذهل قائد البحرية في الاسكندرية لما سمع ، واتصل بالفريق احمد اسماعيل ، القالد العام للقوات المسلحة، فاتصل بدوره بالرئيس السادات الذي اصدر تعليماته باصدار الأوامر بعودة الغواصة الى الاسكندرية . واذكر ان الرئيس السادات اتصل بي تلفونيا في ذلك اليوم وقال : " يبدو ان القذافي يريد ان يضعنا في مأزق .. فهو يحاول ان يغرق الباخرة " كوين اليزابث ٢ " . وقد راعه ان يتصورما يمكن ان ينجم من مضاعفات دولية من مثل هذا الهجوم بلا استفزاز على باخرة بريطانية في عرض البحر عليها مثل هذه الحمولة من الركاب . وقال انه لن يبلغ القذافي الاجراء الذي اتخذه ، بل سيقال له بعد ان تصل الباخرة " كوين اليزابث ٢ " الى ميناء اشدود ان قائد الغواصة لم يستطع ان يحدد موقعها في البحر ، وبالتالي فإنه لم يستطع ان ينفذ الأمر الصادر اليه باغراقها . لكن الرواية لم تنطل على القذافي ، ولم يستطع ان يفهم كيف يسمح لاسرائيل بان تسقط طائرة مدنية في رحلة بريئة ويمنع هو الرد عليها بالمثل . وكان شديد التأثر لما حدث . وصحيح ان الباخرة " كوين اليزابث ٢ " قد انقذت ، لكن العلاقات المصرية الليبية لم تنقذ .

وبمرور الاسابيع تلو الاسابيع راح شعور القذافي باليأس يتزايد . ان خطته البسيطة للوحدة ضاعت وسط التفاصيل، وهو قد منع من ان يقوم بعمل انتقامي يرى ان من حقه القيام به . وبدأ العرب في نظره عاجزين من جميع الوجوه . وفي يوم ١٢ يونيو (حزيران) اقدم على خطوة غير عادية بطبع منشورات يعلن فيها استقالته، وحملها الى شوارع طرابلس وحاول ان يوزعها على اساس انه اذا كان زملأؤه في مجلس قيادة الثورة لن يوافقوا على استقالته ، فانه سيحصل على الموافقة عليها من الشعب مباشرة . وقد جرت مناقشات طويلة في مجلس قيادة الثورة في هذا الشأن وقرر القذافي بعدها الا يبقى في ليبيا بل يسافر الى مصر. وهكذا، فانه ركب الطائرة وصحب معه والدته وزوجته وطفله الحديث الولادة وكل كتبه وحاجياته الشخصية واتجه الى القاهرة . وقصد باختياره القاهرة مقرا لاقامته، ان يظهر ان استياءه ليس موجها ضد مصر.

ونزل القذافي في قصر الطاهرة كمنفى اختياري، لكن تبين في ما بعد انه ليس بالضيف السهل على الرئيس السادات الذي رأى ، بعد تفكير، ان خير ما يمكن ان يفعله للقذافي هو ان ينزل الى الشارع يعرض على الشعب المصري افكاره عن الوحدة ويستمع من افراده الى آرائهم وتعليقاتهم . وفي ذلك الوقت كانت في مصر عناصر كثيرة تجتر اشجانا قديمة ، ولها شكاواها تعلنها، ولكن لم يكن بينها كلها ما هو متصل اتصالا حقيقيا بالمناقشة الاصلية . ذلك ان تحرير المرأة ، او العقوبة التي يفرضها الشرع الا سلامي على السارق لم يكونا المشكلة الحقيقية، وكان من الممكن ان يتم الاتفاق بشأنها في ما بعد عندما يتم الاتفاق على المبدأ الاساسي للوحدة ويبدأ تنفيذه . ولكن تلك الموضوعات التي وجد القذافي نفسه مضطرا الى مناقشتها اينما ذهب . وقد راعه حجم المعارضة الشديدة التي لقيها فراح يقول لنفسه: "اذا كانت مصر لا تريد الوحدة ، فساعود الى ليبيا ". وعاد بالفعل .

وترتب على هذا العمل الاجهاضي عمل اخر هو : " الزحف الليبي على القاهرة " . وكان من بين الحجج التي كثيرا ما ترددت ضد الوحدة هي انها مشروع من وضع القذافي وحده وان جماهير الشعب الليبي لا تؤيده . وكان القذافي منذ شهر فبراير (شباط) الى يوم اختفائه في القاهرة مشغولاً تماما بما سماه " الثورة الثقافية " . وعندما عاد من القاهرة يحمل شعور اليأس وخيبة الامل ، اصر على ان استقالته لا تزال قائمة ، وان على " الشعب " ان يتولى الأمر بنفسه ويخلصه من عذاب الحكم . وعند هذه النقطة طرأت على ذهن احدهم - ولا اظنه القذافي نفسه ، بل احد زملائه على الارجح - فكرة ارسال ٤٠ الف ليبي في زحف على القاهرة ، حيث ينضمون هناك الى آلاف من المصريين ويتوجهون مجتمعين الى قصر عابدين باسم الجماهير في ليبيا ومصر يطلبون الى الرئيس السادات الدمج الكامل والفوري لبلديهما .

وكنت في اوروبا ، عندما سمعت بالاستعدادات لهذا الزحف . واعترف اني رأيت فيه ظاهرة صحية. فقد بدا اشبه بتظاهرة حقيقية للضمير السياسي، اذ لا شك ان حشد ٤٠ الف ليبي من بين سكان بلد يقل تعداده عن مليونين يقطعون في زحفهم مسافة الف وخمسمئة ميل هو في ذاته انجاز ضخم . ولا شك في ان عشرة امثال هذا العدد من المصريين يمكن ان ينضموا اليهم ، وسيخلف مثل هذا الحشد المطالب بالوحدة انطباعا لا تمكن مقاومته، وسيكون من شأنه ان يخترق حاجز التأخير الناجم عن البيروقراطية وا لمنازعات التافهة التي تعرقل المشروع .

لكن البعض احسوا بالخوف من فكرة الزحف . وقيل ان عددا من الليبيين سيكونون مسلحين، وانهم يعتزمون بمجرد وصولهم الى القاهرة تحطيم الملاهي الليلية والمطاعم الموجودة على طريق الهرم في تظاهرة من العنف الديني . وهكذا قامت معالجة هذا الزحف على اساس انها مسألة امن ، لا على اساس انها حدث سياسي، وسد الطريق من مرسى مطروح الى العلمين بعربة من عربات السكك الحديد، كما وضعت الالغام في منطقة اخرى منه. وبلغ الذعر ببعض المسؤولين حد القول انه سيكون من المستحيل

على مصر ان تعارض الاحتلال الاسرائيلي لسيناء ما دامت تسمح بان تتعرض " لغزو" من ليبيا. وبعث الرئيس السادات ببرقية غاضبة الى القذافي الذي رد عليها انه استقال وليس مسؤولا عن الزحف. وعاد الرئيس السادات فبعث ببرقية اخرى اشد غضبا من البرقية الاولى، كان من نتيجتها ان تقرر عقد اجتماع بين ممثلين عن الاتحاد الاشتراكي في مصر وممثلين عن الثورة الثقافية في ليبيا . وتم الاجتماع بالفعل في مرسى مطروح واتفق خلاله على اختيار وفد من ٣٠ الى ٤٠ ليبيا يتوجهون الى القاهرة ويقابلون الرئيس السادات. وعندما قابلوه بدوا اقل شراسة مما حاولت الاشاعات ان تصورهم به . بل ان الكثيرين منهم بكوا وهم يستمعون الى الرئيس يتحدث اليهم عن آماله بالنسبة الى الوحدة .

وكان من المقرر ان تنفذ الوحدة بين البلدين في اول سبتمبر (ايلول)، وكلما اقترب الموعد ازداد التساؤل عما سيحدث . وفي يوم اغسطس (آب) كان الشعور بالقلق نتيجة الانتظار وعدم الاستقرار على رأي قد استبد بالقذافي الى درجة اصدر بعدها امرا باعداد طائرته للسفر، وهبط في مطار القاهرة دون سابق اعلان . ولم تكن في المطار سيارة تنتظره فركب سيارة اجرة حملته الى قلب المدينة ونزل في فندق من فنادق الدرجة الثانية . وكان الرئيس السادات يومها خارج مصر في زيارة للسعودية وسوريا وقطر، لكنه لمجرد عودته حدد موعدا لاجتماع يتم بينه وبين القذافي في قرية الرئيس : ميت ابو الكوم . وكان ذلك في يوم ٢٧ اغسطس (آب) . ولم يكن الاجتماع طيبا. وبذلت خلاله محاولات للتوصل الى صيغة حل وسط يمكن ان تحفظ ماء الوجه ، واعدت بالفعل وثيقة يوقعها الرئيسان تتضمن الاتفاق على اعلان مبدأ الوحدة في اول سبتمبر (ايلول) واجراء استفتاء عليه في البلدين بعد ذلك بثلاثة اشهر. وكنت حاضرا هذا الاجتماع ، وساورني احساس قوي بأن الامر لن يسفر عن شيء . فقد كنت ارى الشعور بخيبة الامل يتزايد لدى الجانبين . وكان القذافي يشعر بأننا لن نخوض المعركة ابدا، على رغم ان الاستعدادات لعملية "بدر" كانت تتصاعد طول الوقت ، وكان العد التنازلي لها على وشك ان يبدأ. لكن الرئيس السادات كان يشعر بانه لا يستطيع ان يذيع السر للقذافي لأنه يعرف ان القذافي لا يوافق على فكرة العملية ، وكان هناك دائما الخطر ان تتسرب بعض المعلومات عنها. ومع ذلك ، فان الانصاف يقتضي ان نقول ان ليبيا ساهمت بما يقارب الالف مليون دولار في الاعداد للمعركة .

وقبل بضعة ايام من بدء المعركة وقع حادث اخر يعتبر مثلا لذلك النوع من سوء الفهم الذي لازم العلاقات بين الرئيسين . كان الطلبة الليبيون في جامعة الا سكندرية قد طلبوا الى القذافي ان يلقي خطابا في الاحتفال الذي يقيمونه بالذكرى الثالثة لوفاة الرئيس عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر (ايلول) . وطلب القذافي اذنا من الرئيس السادات بذلك، لكن الرئيس رد عليه انه هو نفسه سيلقي خطابا في الاجتماع الذي تقيمه اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي في القاهرة في ذلك اليوم ، وان من الخطأ- في رأيه- ان يتحدث كلاهما في وقت واحد وفي مكانين مختلفين . واقترح عليه ان يظهر معه على المنصة نفسها في القاهرة يوم ٢٨، ثم يسافر الى الا سكندرية في اليوم التالي لحضور اجتماع الطلبة الليبيين . ووافق القذافي على الاقتراح . ووصل الى مطار القاهرة بعد ظهر يوم ٢٨ نفسه، وتوجه الى ضريح عبد الناصر للصلاة ، ثم ذهب الى منزل عبد الناصر لتحية السيدة عقيلته ، وانطلق مدفع الافطار بينما هو هناك، وبقي لتناول طعام الا فطار (وكان ذلك في رمضان) ثم توجه الى قصر الطاهرة الذي كان من المقرر ان ينزل فيه كالمعتاد، في انتظار ان يمر الرئيس عليه ليصحبه معه الى الاجتماع . وكان موعد الاجتماع ساعتها قد ازف ، فترك الرئيس السادات رسالة يرجو فيها القذافي ان يلحق به. لكن القذافي احس بان كرامته اهينت ، وقرر الا يذهب الى اللجنة المركزية . ومر الرئيس بقصر الطاهرة بعد انتهاء الاجتماع ليعرف ما الذي حدث للقذافي ، وقيل له انه ذهب الى مسجد سيدنا الحسين في قلب المدينة القديمة . وفي صباح اليوم التالي طار القذافي- وكان لا يزال يعالج مشاعره - عائدا الى ليبيا من دون ان يقابل الرئيس السادات .

ولسوء الحظ، فانه عندما بدأت المعركة بالفعل، وعلى رغم ان القذافي استقبل نشوبها بحماسة، وجرد الحوانيت الليبية من الأطعمة الموجودة فيها، والمستشفيات من الادوية وكدسها في لوريات تنقلها الى

مصر، فانه ارتكب خطأ جسيما في ما صرح به علا نية من انه كانت له دائما تحفظات بالنسبة الى التصور الذي قامت عليه خطة المعركة، وان كان قد اضاف انها ما دامت قد بدأت فان على الجميع ان يبذلوا ما في استطاعتهم لضمان نجاحها. ولم يكن هذا مقبولا في وقت كان الكثيرون في مصر يقاتلون ويستشهدون ، وكان له تأثيره بالنسبة الى حسن نيته . وقد اوفد القذافي في الايام الاولى للمعركة اثنين من اعضاء مجلس الثورة- اولهما عبد المنعم الهوني ثم عمر المحيشي بعده باسبوع - لمراقبة تقدمها. وبعد وقف اطلاق النار جاء القذافي الى القاهرة بنفسه ، وتصور يومها انه ممنوع من دخول غرفة العمليات بينما يسمح لبعض الامراء السعوديين بدخولها . ولم يصدق الرئيس السادات، حين قال له انه لم تكن هناك ترتيبات لاية عمليات تعد في ذلك الوقت.

وعندما استطاع الاسرائيليون ان يعبروا القناة الى الضفة الغربية لقناة السويس شعر القذافي بان شكوكه بالنسبة الى خطة العملية كان لها ما يبررها . وقد اعترض على وقف اطلاق النار ، وحاول الاتصال تليفونيا بالرئيس السادات ليشرح اعتراضاته التي ضايقت الرئيس السادات. فقد كان الرئيس يشعر- وله الحق- بانه يعرف عن حقائق الموقف اكثر بكثير مما يعرف القذافي . وكان الرئيس السادات يحس تماما بالشكوك التي تساور القذافي تجاهه، واذكر قوله في احد الأيام بعد بدء المعركة بفترة وجيزة : "الآن وقد بدأتها، فاني ارجو ان يدرك القذافي وغيره ممن كانوا يظنون الا هم لي الا التذرع بكسب الوقت، انهم كانوا مخطئين " .

الجزء الحادي عشر
العلاقات بين مصر والولايات المتحدة

لم يكد يعاد انتخاب نيكسون رئيسا للولايات المتحدة في العام ١٩٦٨، حتى بعث اليه عبد الناصر ببرقية تهنئة . وكان الرئيسان تقابلا لأول مرة فى اوائل العام ١٩٦٣، عندما زار نيكسون القاهرة - وهو خارج الحكم – ومعه خطاب تقديم من الرئيس كينيدي . واصدر عبد الناصر يومها تعليمات ان يلقى نيكسون احسن معاملة ممكنة ، وقال : " علينا جميعا ان نذكر انه هو الذي كان نائبا للرئيس ايزنهاور في العام ١٩٥٦ ايام حرب السويس " . وهكذا ، اعدت له طائرة خاصة نقلته الى اسوان لزيارة السد العالي ، وقال بعد عودته من اسوان ان من رأيه ان قرار امريكا بسحب تمويل السد ، كان افدح خطأ ارتكب في عهد ايزنهاور ، وان كان قد وجه اللوم في اتخاذ القرار الى جون فوستر دالاس وزير الخارجية الاميركية آنذاك .

وبعد البرقية التي بعث بها عبد الناصر الى نيكسون تمت زيارة سكرانتون للقاهرة ، ثم رحلة الدكتورمحمود فوزى الى واشنطن في العام ١٩٦٩مبعوثا خاصا لعبد الناصر للا شتراك في تشييع جنازة ايزنهاور، وبعدها جاءت زيارة سيسكو في العام ١٩٧٠ ، ثم مبادرة روجرز ، ثم زيارة اليوت ريتشاردسون للا شتراك في تشييع جنازة عبد الناصر. اضافة الى هذه الزيارات كلها استمرت الاتصالات بالوسائل الديبلوماسية العادية على رغم ان العلاقات بين البلدين كانت مقطوعة منذ حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧.

ومع بداية العام ١٩٧٠ ساد القاهرة اقتناع متزايد بأن وزارة الخارجية الاميركية لا تستخدم في عهد نيكسون الا في المسائل الديبلوماسية الروتينية ، وان المسائل الكبرى في الشؤون الخارجية يتولاها هنري كيسينجر في البيت الابيض . فقد كان كيسينجر هو الذي وضع تسوية حرب فيتنام ، كما انه هو الذي اجرى مفاوضات الوفاق مع الصين . واذا كان لمشاكل مصر نفسها ان تلقى الاهتمام اللازم في واشنطن ، فلا بد من ان تكون هذه المشاكل " ساخنة " الى درجة تدفع كيسينجر الى معالجتها .

وطوال العام ١٩٧٢ كانت الاتصالات بين مصر والولايات المتحدة تتم عن طريقين، احدهما هو الاتصال المباشر بين وزارتي الخارجية في البلدين، والثاني الاتصال غير المعلن بواسطة المخابرات المصري والمخابرات الاميركية (التي كان نشاطها دائما كبيرا في الشرق الاوسط بوجه خاص). اضافة الى ذلك، فقد بذلت محاولات لايجاد وسائل جديدة للاتصال، ووجدت نفسي مشتركا في واحدة منها على الاقل . وكان ذلك، حين قام دونالد كانديل رئيس مجلس ادارة " بيبسي كولا " بزيارة للقاهرة عام ١٩٧٢ . وكان كانديل صديقا شخصيا لنيكسون الذي كان محاميا للشركة وقد اتصل بي عن طريق محام مصري بارز هو الدكتور زكي هاشم الذي تولى بعد ذلك منصب وزيرالسياحة، وكان اقتراحه ان يتم لقاء بين كيسينجر وبيني تدور فيه مناقشات استكشافية ، وعرض ان يكون ذلك في منزله في كنيكتيكت خلال عطلة نهاية اسبوع طويلة. وعندما عاد الى واشنطن اثار الفكرة مرة اخرى مع الدكتور اشرف غربال المشرف على المصالح المصرية في واشنطن في ذلك الوقت ومع الدكتور محمد حسن الزيات مندوب مصر الدائم في الأمم المتحدة . وتم الاتفاق على موعد مقترح للاجتماع ، وبعث الدكتور الزيات بتقرير عن الموضوع الى الدكتور محمود فوزي رئيس الوزراء الذي حوله بدوره الى الرئيس السادات. وعندما ناقش الرئيس الفكرة معي كنت مترددا، وكان رأيي انه لا بد من تقوية موقفنا الداخلي وموقفنا العالمي ، قبل ان ندخل في اي محادثات جادة مع اي شخص حتى لو كانت مجرد " محادثات استكشافية " . وعليه ، فقد بعثت الى دونالد كانديل ببرقية أعتذر فيها عن عدم الموافقة على الاجتماع . ولكن الفكرة ، في اي حال ، ساعدت على فتح الشهية في القاهرة لاجتماع يتم على مستوى عال .

وتم هذا الاجتماع اخيرا في الساعة الحادية عشرة والنصف ، من صباح يوم الجمعة ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٧٣ وكانت في الاجراءات التمهيدية له لمسة ذات طابع مسرحى . فقد كان الاقتراح الأول بشأنه أن يعقد (سرا بطبيعة الحال) في قاعدة امريكية بالقرب من برشلونة في اسبانيا ، لكن فكرة عقده فى قاعدة امريكية لم تلق حماسة في القاهرة . وعندما تم الاتفاق على ان يعقد الاجتماع في واشنطن ، ووقع الاختيار على حافظ اسماعيل مستشار الرئيس السادات لشؤون الأمن القومي (ونظير كيسينجر في اميركا) مندوبا خاصا عن مصر ، فانه تقرر اخفاء الغرض الحقيقي للزيارة ، وهو الاجتماع مع نيكسون وكيسينجر ، واتفق على ان تتم رحلته عن طريق بون ولندن حيث اجرى محادثات مع كل من فيلي برانت وادوارد هيث . وقبل ان يبدأ اجتماعه بنيكسون استقبله كيسينجر في البيت الابيض ، واوضح له انه هو نفسه لن يبقى في اثناء اجتماعه بالرئيس الا فترة قصيرة حتى لا يترك انطباعا انه سيحل محل وزارة الخارجية في معالجة مشكلة الشرق الاوسط . وقال انه لا يريد ان ينشر شيء في الصحف أو غيرها عن هذا اللقاء الخاص الذي تم بينهما ، وسيجتمعان مرة اخرى بصفة سرية في منزل دونالد كانديل في كنيكتيكت .

واستقبل نيكسون حافظ اسماعيل في المكتب البيضاوي في البيت الابيض . وحضر المقابلة مع حافظ اسماعيل الدكتور محمد حافظ غانم مستشار الرئيس . وكان مع نيكسون – اضافة الى الفترة القصيرة التي حضرها كيسينجر – احد مساعدي كيسينجر ، وهو الجنرال سكوكروفت الذي تولى كتابة محضر الاجتماع . وكان الجزء الأول منه ، كالعادة مفتوحا لمصوري الصحف والتلفزيون ، وقد رحب نيكسون خلاله بحرارة بالمبعوث الخاص للرئيس السادات ، وبعد ذلك انسحب المصورون وبدأ الاجتماع مناقشاته .

وتحدث نيكسون ... قال انه سعيد لأن مصر وافقت على المضي في عقد الاجتماع (ذلك لأن حادث اسقاط المقاتلات الاسرائيلية للطائرة المدنية الليبية كان وقع قبل ثلاثة ايام فقط ، وترددت في مختلف انحاء العالم العربي اصوات تنادي بالغاء الاجتماع) وقال انه لا يستطيع ان يقبل الاعذار التي قدمتها اسرائيل بشأن الحادث ، ولا يستطيع ان يصدق البيان الذي اصدرته مسز مائير ، وقالت فيه انها وحكومتها لم تعرفا شيئا عن الحادث الا بعد وقوعه ، وكان التعبير الذي استخدمه بالضبط هو " انا لا اشتري هذا " .

ثم انتقل نيكسون الى الحديث عما احس به من متعة في اثناء زيارته لمصر في العام ١٩٦٣ ، ومن احترام شديد للرئيس عبد الناصر . وقال انه يريد ان يوم بدوره في بناء سلام دائم في الشرق الاوسط ، لكنه لا يستطيع ان يعرف مقدما الشكل الذي يجب أن تأخذه التسوية النهائية . وقال ايضا انه لا يود ان يفرض رأيه على أحد ، وانه لا بد من ان نذكر انه في حين ان مصر تريد المحافظة على سيادتها ، فغن اسرائيل تريد المحافظة على امنها (وهذا الاسلوب الذي ينزل بالمشكلة الى مجرد معادلة بسيطة بين السيادة والأمن مصدره – على الارجح – هنري كيسينجر ، وهو اسلوب بدانا نسمعه بعد ذلك مرارا وتكرارا) . ثم طلب من حافظ اسماعيل ان يقدم عرضا صريحا لوجهة نظر مصر ، واضاف : " على رغم اخطائي كلها ، فإن عدم المحافظة على الوعود ليس واحدا منها " .

وراح حافظ اسماعيل يشرح تحليله للموقف : تحدث عن الخطر الشديد الناجم عن الحالة الراهنة ، وعن دور مصر التاريخي في المنطقة ، وعن اصرارها على البقاء خارج مناطق النفوذ كما عبرت عنه في سحب الخبراء السوفييت. وقال ان السبب الوحيد للخلافات بين الولايات المتحدة ومصر هو التأييد العسكري والسياسي الكامل من جانب الولايات المتحدة لاسرائيل ، وحذر من يوم تتحدى فيه اسرائيل مركز امريكا نفسها في الشرق الاوسط كما سبق ان تحدت بريطانيا. وذكر ان السبب الرئيس للأزمة في الشرق الاوسط هو الصدام بين طائفتين هما اليهود والفلسطينيون ، وانه لا بد لاسرائيل من ان تحاول الاتفاق مباشرة مع الفلسطينيين . وقال انه اذا كانت اسرائيل تريد السلام، فعليها ان تسلك مسلك دولة في الشرق الاوسط ، ولا تواصل اعتمادها على التأييد من جانب العالم الخارجي، كما ان عليها ان تضع نهاية للهجرة وتقطع صلاتها بالعالم الصهيوني وتتخلى عن مطالبها بحق الجنسية المزدوجة لمواطنيها .
وقال نيكسون انه يرى- كما حدث بالنسبة الى لصين والى تسوية مشكلة فيتنام - ان تجري المناقشات مع مصر في المستقبل على مستويين : احدهما عن طريق وزارة الخارجية وتكون كلها في العلن . والثاني عن طريق وسائل الاتصال السري التي يشرف عليها الدكتور كيسينجر وتتم من دون معرفة وزارة الخارجية. وهذا الطريق هو السبيل للوصول الى تسوية حقيقية . وقال انه لا بد من ضمان السرية المطلقة حتى لا تعرف اسرائيل شيئا مما يجري ولو في الوقت الحاضر على الأقل . (وقد طلب نيكسون من الجنرال سكوكروفت الا يسجل هذه العبارة في المحضر. وان كنا نفترض الآن بعد كل ما اظهرته محاكمات قضية " ووترجيت " ان الاشرطة كانت تسجل كل شيء طول الوقت) ولا بد ان تظل الاتصالات مستمرة مع كيسينجر، وان يكون كلامنا معه صريحا... كأننا نتحدث الى الرئيس نفسه. وختم كلامه بقصة شخصية اعرب عن رغبته في ان يرويها . قال أنه منذ يومين كان يتناول طعام العشاء مع ابنته ، وسألها عن البلد الذي تود ان تعود لزيارته اكثر من غيره من بين البلا د التي زارتها فقالت : انها مصر. وكان الانطباع الذي خرج به حافظ اسماعيل من هذا الاجتماع الذي استغرق ٧٠ دقيقة ان نيكسون كان مرتاحا، وان كلامه عن حسن النية تجاه مصر كان اصيلاً . كما انه احس ان لدى نيكسون رغبة حقيقية في ان يقوم بدور شخصي في حل مشكلة الشرق الاوسط .

ولم تكن الاجتماعات السرية الثلاثة التي عقدها حافظ اسماعيل مع كيسنجر في منزل دونالد كانديل منتجة الى حد كبير، وان تكن القت بعض الضوء على الطريقة التي يتبعها كيسينجر في عمله. فقد وضع كيسينجر ثلاثة مبادىء لتعامله مع مصر، هي : " الثقة المتبادلة " و"عدم الخداع " و" السرية المطلقة ". وقال ان امريكا لا تستطيع ان " تفرض " أي شيء على اسرائيل، وان كانت هناك طرق للضغط عليها لا يمكنها ان تتجاهلها ، والحكومة الامريكية من جانبها مستعدة لاستخدام هذه الطرق اذا توافرت لذلك " اسس ادبية " يمكن اظهارها للرأي العام الاميركي . وقال ايضا انه ليس الولايات المتحدة اعتراض على صداقة مصر مع الاتحاد السوفيتي ، ولكن اذا كانت مصر تظن انها تستطيع ان تدق اسفينا في العلاقات بين امريكا والاتحاد السوفييتي ، فإنها ستجد نفسها مخطئة . والولايات المتحدة مستعدة من جانبها لاجراء مناقشة عامة مع الاتحاد السوفييتي بشأن مشاكل الشرق الاوسط ، اما مناقشة التفاصيل ، فإنها تفضل ان تكون بينها وبين الاطراف المعنية مباشرة . ثم انتقل كيسينجر بعد ذلك الى

الحديث عن معادلته المفضلة عن السيادة والامن ، وقال ان اي انسحاب من جانب اسرائيل معناه التخلي عن اساس محدد وملموس للامن ، ولا بد لاسرائيل من ان تقتنع بان الامن الملموس ليس كل شيء . وعلى المصريين ان يستقروا على رأي بالنسبة الى ما هم مستعدون لأن يعرضوه في مقابل بعض الانسحاب الاسرائيلي . وكان واضحا من كلام كيسنجر ان مصر، البلد المحتلة ارضه، هو الجانب المطالب بتقديم تنازلات . فقد قال لحافظ اسماعيل ان الضمانات الشفوية لا تكفي ، وان التنازلات المطلوبة من مصر تنا زلات سياسية واقليمية .

ومما يؤسف له ان اي آثار طيبة كان يمكن ان تنجم عن هذه الاتصالات، قد ضاعت نتيجة للزيارة التي قامت بها جولدا مائير للولايات المتحدة ، بعد ذلك بايام قليلة. فقد اعلن في نهايتها ان اسرائيل ستحصل على شحنة ضخمة جديدة من طائرات " فانتوم " و "سكاي هوك " . وكان واضحا من حجم الصفقة ان الولايات المتحدة كانت تتعهد مرة اخرى بتأمين قدرة اسرائيل الهجومية. وقد ترك ذلك شعوراً بخيبة امل شديدة لدى الجانب المصري .

وباستعراض هذه المرحلة، يمكننا ان نرى ستة خطوط كان لها تأثيرها على السياسة الاميركية في الشرق الاوسط .

١- ان الامريكيين يريدون الابقاء على السوفييت خارج المنطقة، وخارج نطاق اي اشتراك فعلي في شؤونها . وذلك لانهم ، من ناحية، يعارضون ان يكون للسوفييت وجود فيها . ولانهم، من ناحية اخرى، يخشون خطر صدام بين القوتين العظميين يترتب عليه .
٢- انهم يريدون ان تظل الخيوط المختلفة للمفاوضات منفصلة : ان يجروا مفاوضات للتسوية بين مصر واسرائيل ، وبين اسرائيل وسوريا ، وبين اسرائيل والفلسطينيين (اذا اصبح ذلك في الامكان يوما) الخ... شرط ان تتم كلها على انفراد وليس كجزء من تسوية شاملة .
٣- ان كل تسوية منفصلة يجب ان يتم التفاوض بشأنها مرحلة بعد مرحلة .
٤- ان الامريكيين- موافقة منهم على النظرية الاسرائيلية- مقتنعون بأنه لا يمكن ان تكون هناك عودة الى حدود العام ١٩٦٧ .
٥- ان المشكلة الفلسطينية يجب ان ينظر اليها كمشكلة لاجئين فقط .
٦- ان النتيجة النهائية يجب ان تكون " ايقونة امريكية " وسلاما امريكيا يضمن المصالح الامريكية في المنطقة .

الجزء الثاني عشر
الضغوط نحو الحرب

تحدثنا بما فيه الكفاية عن المشاكل الداخلية التي واجهت الرئيس انور السادات خلال السنوات الثلاث الاولى لتوليه الرئاسة . واجد لزاما علينا – قبل وصف المعركة التي توجت تلك السنوات – ان نلقي نظرة سريعة على الضغوط من الداخل ومن الخارج التي كانت تدفع الرئيس بعناد نحو الحرب .

١- مع حلول العام ١٩٧٣ كان الاقتصاد المصري تحت وطاة ضغط يكاد يكون غير محتمل . فتطوير الصناعة ، والسد العالي ، وما استنزفته حرب اليمن ، جعلت من السنوات الأولى وسنوات الوسط في الستينات فترة تمدد فوق الطاقة . ثم جاءت هزيمة العام ١٩٦٧ والحاجة الى اعادة كاملة تقريبا لبناء الجيش وتجهيزه . وقد انفقت مصر على المجهود الحربي خلال خمس سنوات بين ١٩٦٨ و ١٩٧٣ ، ما يراوح بين ٨ بلايين و٩ بلايين دولار . وكانت هذه الحقبة بالنسبة الى الشعب المصري حقبة تضحية وتقشف لا يمكن أن نتوقع من أي شعب ان يتحملها الى ما لانهاية .

٢- كانت الثقة في النظام كله في خطر منذ العام ١٩٦٧ . وقال الرئيس الفرنسي ديجول ذات يوم ان أي نظام يفشل في حماية حدود بلاده يفقد شرعيته اوتوماتيكيا . وكان هذا القول ينطبق على مصر . بل انه حتى في حياة عبد الناصر كانت هناك بعض عوارض التمرد على رغم المكانة العظيمة التي ظل يتمتع بها . ثم حدثت وفاته ، واعقبتها صدمة وشعور بالحيرة ، ثم جاءت الذروة العكسية " سنة الحسم " وانفجر الشباب ، وامكن احتواء انفجاره ، لكن الغليان استمر تحت السطح .

٣- منذ العام ١٩٦٧ والقوات المسلحة في حالة تعبئة عامة تقريبا . ظلت في الصحراء سنة بعد سنة تتدرب وتقوم بالمناورات . وكان الضباط والجنود – على حد تعبير الرئيس السادات – " يأكلون الرمل " . ولم تكن لهذا كله نهاية ظاهرة في الافق . وكانت مظاهر التوتر تبدو على كل مستوى . وحدث في يوم ، ان قاد احد الملازمين قافلة من سبع عربات مصفحة الى قلب القاهرة ، ودخل أحد المساجد وراح يخطب منددا بالحكومة . ثم حدثت المناقشة الصاخبة التي ادت الى اقالة الفريق صادق . وكان بعض المجندين . وكثيرون منهم من خريجي الجامعات ظلوا في التجنيد مدة خمس أو ست سنوات ، وكانوا يشعرون بأن دراستهم ضاعت هباء وان فرص حصولهم على وظائف مدنية يؤدون فيها اعمالا مفيدة ، مشكوك فيها . وكان الجيش تواقا الى ان يثبت جدارته ، وله الحق في ذلك . وكان ابرز ما كشفت عنه حرب ٦ اكتوبر (تشرين الأول) هو الاسلوب المثالي الذي اتسم به تصرف جميع رجال الجيش على اختلاف رتبهم . فلم يكن من الممكن ان يظهروا من النظام افضل مما اظهروا ، ولا من الروح المعنوية أكثر مما توافر لهم .

٤- مع حلول العام ١٩٧٣ كانت مصر اصبحت موضع سخرية العالم العربي ، فقد ظلت تقول انها زعيمة العرب وحامي حماهم ، لكنها بعد توقف حرب الاستنزاف عام ١٩٧٠ بدت في وضع غريب ، كانت تطلب من الغير ان يستخدموا ما لديهم من سلاح البترول ، في حين انها هي نفسها لم تظهر دليلا على استعدادها لاستخدام ما لديها من اسلحة . وكان كل يوم يمر يوم ذل في حياة مصر .

٥- وصل الموقف الى نقطة سيطرت فيها على اصدقائنا في الخارج- في افريقيا وآسيا، بل حتى في لندن وباريس- حالة قريبة من اليأس . فقد قدموا الى مصر كل ما طلبته من تأييد، ومع ذلك فلم يحدث شيء. ولعل افضل مثل على ذلك ما اظهره مسيو جوبير وزير الخارجية الفرنسية انذاك من رد فعل لما تحدث به السفير المصري في باريس في اثناء اجتماعه معه ذات يوم عن خطورة الموقف في الشرق الاوسط، وما اكده من انه اذا لم يتم اتخاذ اجراء ما، فان الموقف سينفجر، وقد رد مسيو جوبير بقوله: " لم لا؟.. فلينفجر" .

٦- كان مسلك اسرائيل من اشد القوى الضاغطة على الرئيس السادات. وقد بلغت العجرفة بالساسة الاسرائيليين حدا غير معقول، وبلغت ذروتها مع اقتراب موعد الانتخابات الاسرائيلية العامة الذي كان مقررا له يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الاول) . وطوال الربيع والصيف كانت الاحزاب والمرشحون في الانتخابات يزايدون بعضهم بعضا بالنسبة الى مشروعاتهم الخاصة بالاراضي العربية المغتصبة. وقد غير الائتلاف العمالي، تحت ضغط من الجنرال ديان ، موقفه بالنسبة الى ضم الاراضي المحتلة. فالضم عن طريق الزحف او "خلق الحقائق "- كما كانوا يسمونه – بدأ يشتد. واصبح ديان يتحدث علانية عن مشروعاته بالنسبة الى ميناء ياميت في رفح لعزل مصر للأبد عن أي اتصال بقطاع غزة. وقال الرئيس السادات : "ان كل كلمة تقال عن ياميت اعتبرها خنجرا موجها الي شخصيا ولاحترامي لنفسي".
٧- واخيرا ، فقد كان هناك – كما سبق ان ذكرنا – الشعور بان هذه هي فرصة مصر الاخيرة . وقلت للرئيس يوما : " اخشى ان يكون هناك ما يشير الى ان الوفاق سيصبح حقيقة تفرض نفسها علينا قبل ان نفرض انفسنا عليها . ان الوفاق سيفرض الشروط على مشكلة الشرق الاوسط بدلا من ان تفرض مشكلة الشرق الاوسط شوطها عليه " . وكان رد السادات متسما بدهاء شديد اذ قال : " ربما كان في استطاعتنا ان نمسك بالجزء الاخير من ذيل الوفاق " .